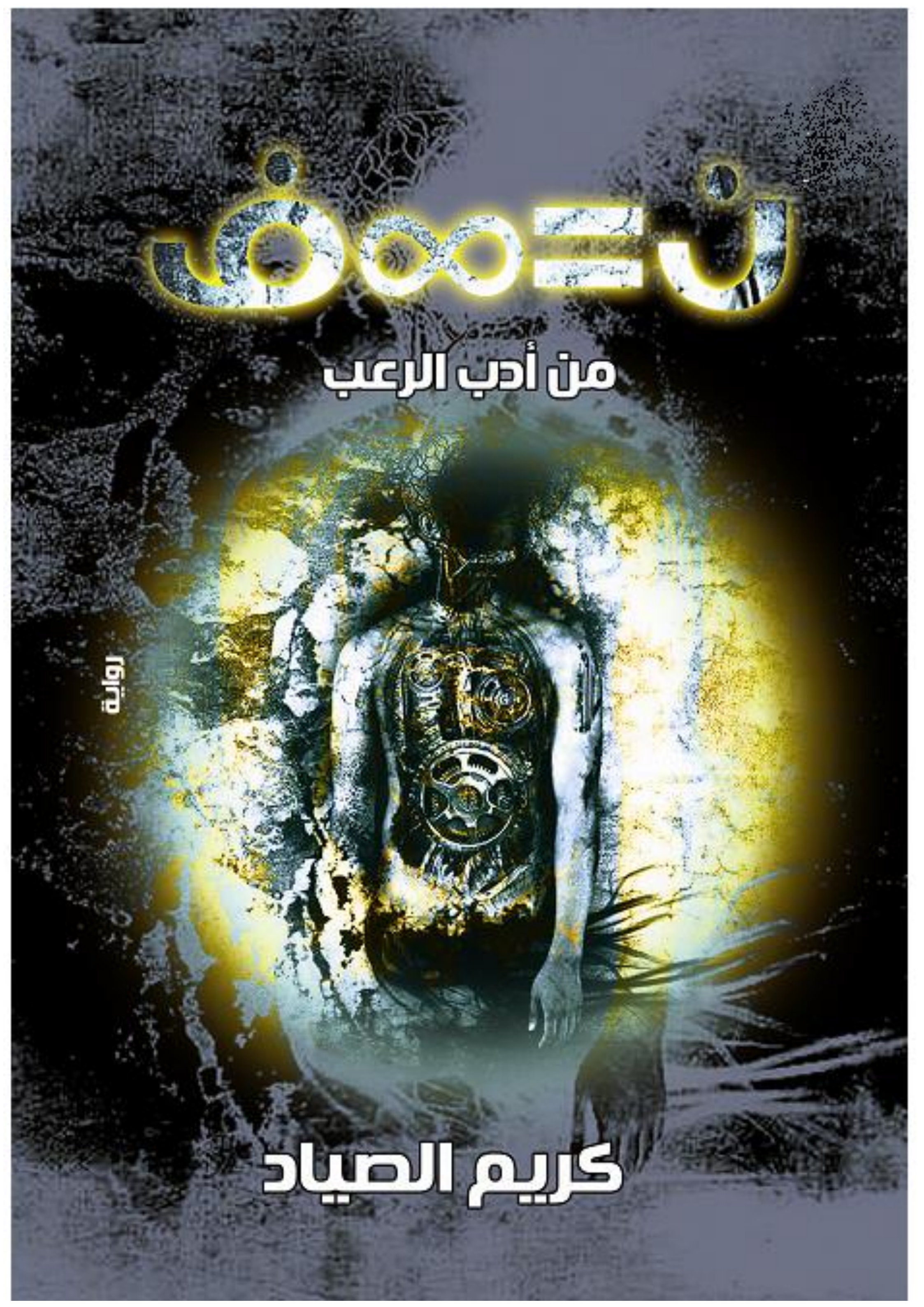
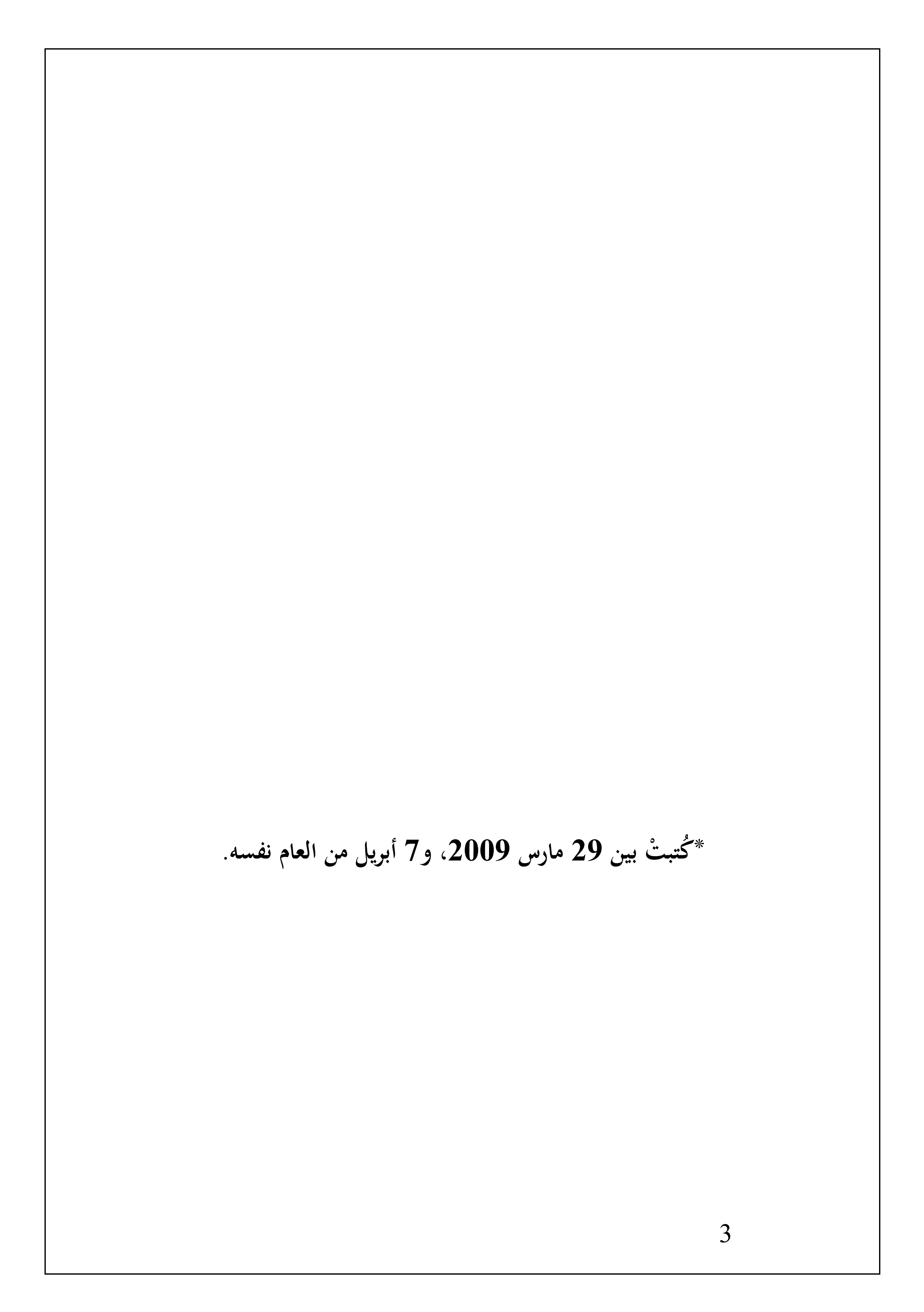

من أدب الرعب
رواية
كريم الصياد

كريم الصياد

ن = ∞ ف

رواية

كريم الصياد



***كُتبتْ بين 29 مارس 2009، و7 أبريل من العام نفسه.**

إشارة

تضم الصفحات القادمة محاولة لفهم الأحداث المأساوية التي وقعت بين عامي 2020، 2021 لواحدٍ من أهم علماء مصر: الدكتور (محمد عبد الله)، وذلك بقلمي ثم بقلمه، بحيث يشمل القسم الأول روايتي، والقسمُ الثاني مذكراته، بينما يحتوي القسم الثالث على كتابه الأخير الذي يُنشر ها هنا للمرة الأولى، وذلك رغبةً مني في الوقوف على تفسير معقول لتلك الأحداث العجيبة من جهة، وتوخي الأمانة العلمية والخُلُقية في سردها من جهة أخرى.

وأحب الإشارة في البدء إلى أنني ترددت كثيرًا بشأن نشر كتابه لما له من خطورة، ولأنه لم يوص بنشره، لكنه لم يوص أيضًا بعكس ذلك صراحةً، واستقرّ رأيي في نهاية الأمر على نشره للأسباب السالفة جميعًا.

وأود أن أشكر مسز (أَنْجِرْبُودا ف. فايس) لسماحها لي بقراءة ونشر مذكرات زوجها ومخطوط كتابه، فلها مني كل امتنانٍ وتحية.

محمود جبريل

السكرتير السابق للدكتور محمد عبد الله

القسم الأول

اكتشافٌ ما

بقلم: محمود جبريل

"هكذا افترض برجسون أن الميتافيزيقا ليست وجودًا مفارقًا بعيدًا فوق العالم أو وراء العالم، وإنما هي وجود (حول) كل شيء، كل شيء حوله هالة ميتافيزيقية سمكها بضعة سنتيمترات، وكما اكتشف العلماء الطبيعةَ المزدوجة للجسيمات: جسيم+موجة، واكتشف برجسون الطبيعةَ المزدوجة للأشياء: فيزيقا+ميتافيزيقا، فأنا سأكتشف الطبيعة المزدوجة للحياة: مادة+مادة أخرى"

-1-

محاضرات ومؤتمرات أوروبا،
من 20 نوفمبر إلى 25 ديسمبر 2020

"Thank you"

قالها فدوت القاعة بالتصفيق.

حيا جمهوره الذي باعه أذنيه وعقله لثلاث ساعاتٍ كاملة وإلى الأبد، خاتمًا محاضرته التي شرح فيها أساس كشفه العلمي الحائز على جائزة نوبل في العلوم لهذا العام، فرفع رأسه وهو يعلم أن ضوء المصابيح الساطع سينعكس على زجاج منظاره الطبي فيمنحه مظهرًا سبرنطيقيًا أو طيفيًا، واستقبل التصفيق بأذنيه وعينيه ورئتيه وبكل نسيج من جلده.

يبدو أن الدكتور محمد عبد الله لم يكن من العلماء المتسمين بالتواضع.

كنت أشعر بالملل الشديد حتى تكاد أعضائي تكتسب حياةً خاصةً بها وتتحرك مبتعدةً عن المشهد الذي عشته أكثر من عشر

مـرات منـذ نـال الـدكتور الجـائزة، فبمجـرد الانتهـاء تـزاحم حولـه الصـحفيون والعلمـاء والطـلاب في حمـاس، سـألته صـحفية ألمانيـة بإنجليزية جيدة:

-د. عبد الله.. ما المسائل العلمية التي تشغل اهتمامك الآن بعد اكتشافك الأخير؟

عقد يديه أمام جذعه كأنه يصلي وقال في رصانة:

-أنشغل بألغاز علمية قد تبدو تافهة، لماذا يبدو لون الفضاء أسود مثلاً؟

-إذا سمحتَ لي..هل هذا سؤال علمي تقليدي؟

-سؤال علمي بالمعنى الدقيق على أية حال.

سارع أحد الصحفيين بسؤاله:

-وكيف توصلتم إلى اكتشافكم سرَّ الروح؟

ابتسم ابتسامةً كبيرة وأجاب:

- لم أومن بها قط، ولهذا عرفتها حين وجدتها.

ضحك الجميع، لم يكن الدكتور يحب أو يجيد الدعابة، لكنه كان يعرف أنه منذ هذه اللحظة ستدخل كل كلمة منه وكل إيماءة التاريخ، وكل من حوله يعرفون ذلك، يبدو أنني أيضًا سأدخل التاريخ.

عادت الصحفية تهتف:

-دكتور، أنا أقيم في الفندق نفسه الذي تقيم فيه، اسمح لي أن أوصلك.

-في الواقع معي سيارتي، إنه ليسرني أن أوصلك أنا.

لقد راقت له، فقد كانت ذات جمال يغشي البصر، أعترف أنني حين رأيتها تذكرتُ الله.

جلسا في المقعد الخلفي للسيارة يتحدثان، أظن أنها كانت مهتمة من باب الفضول العلمي الأصيل، وكان هو يتحدث من باب استعراض عضلاته العقلية، عرفتُ منذ زمن أنه يعيش هذا الدور من البطولة، لقد أصرّ أن يبهرها بعقله المتضخم الذي يكاد ينبجس من جمجمته كما أبهرته بجمالها الذي يكاد ينضح من جلدها، أعتقد أنه نجح إذ كنت ألمحها في المرآة تبرق وتبرق حتى تكاد تضيء دون أن تمسها نار.

-قف عند المطعم التالي يا محمود.

قلت:

-إن الفندق قريب يا دكتور.

-أفضل قليلاً من التغيير.

على مائدة الغداء داعبتْ فخذ الدجاجة بطرف الشوكة وهي تقول في مرح:

-إذن.. هل تزعم إمكانية أن تعيد هذه الدجاجة إلى سيرتها الأولى؟

كان يمتلئ فخرًا وحماسة وشعورًا بالقوة، ازدرد الطعام في شهية كبيرة وقال:

-إن مادة (الأنيما) التي اكتشفتها حية بذاتها، لكن هذا يختلف عن محاولة إصلاح دجاجة مذبوحة ومشوية، أنا أقدم لكم الأبدية في محقن، وعليكم أنتم أن تصلحوا ما فسد وتنشئوه نشأةً أخرى، وأمامكم كل الزمن.

تناول قطعةً أخرى وقال في شيء من الرقة:

- لم أتعرفك بعد يا آنسة.

كدت أضحك، إنه ينسى اسم أي امرأة بعد نصف دقيقة، وهو قدير على أن ينسى كل شيءٍ عنها في نصف ساعة، لكنني غيرتُ رأيي حين قالت:

- أنجربودا Angrboda .

فرأيتُ على وجهه تلك النظرة، مزيج من الحلم والانبهار والبريق الخافت في عينيه اللتين يرفعهما بضعة سنتيمترات فوق رأسها، لا أعرف إلى أية عوالم غريبة حمله اسمُها في لحظة، عرفت فيما بعد أنه انتقل في تلك الثانية إلى عالم آلهة الشمال وأساطير النورز Norse والتيوتون، أنجربودا حبيبة الإله لوكي Loki الماكر المتمرد والتي أنجبت منه جنسًا من الوحوش، ذلك الإله الذي تسبب في مقتل إله النور، فعُذِّب بحيةٍ عملاقة تلتف فوق رأسه، وتفرز سمها ليسيل على جسده المقيد بالسلاسل فيتألم، وحين يرتجف ألمًا يكون هذا تفسير ظاهرة الزلزال، وكانت زوجته تخفف ألمه الإلهي بوعاء عملاق تجعله بحيث يصب فيه سم الحية، فإذا امتلأ غادرته لتفرغ الوعاء، فيسيل السم على جسده ثانيةً، فيرتجف، ويحدث زلزال، ثم تعود إليه، وهكذا، مسيح مقلوب، بروميثيوس شمالي، لكنه حين يحطم السلاسل ويتحرر سوف يقود العماليق إلى السماء وتحين قيامة العالم، غسق الآلهة Götterdämmerung، أو ما كان يسمى بلغة الشماليين القدماء Ragnarök.

حين انقضى اليوم عدتُ إلى غرفتي بالفندق نفسه الذي كان يقيم فيه الدكتور، غرفة على قدر كبير من الرقي، فقد كنت صديقًا له أكثر مني سكرتيرًا وتلميذًا، وهو ما لاحظته الصحفية بسهولة.

ابتسمتُ بخبثٍ، الآن لك الدنيا ومَن أمسى عليها يا دكتور، إن لم يكن الآن وقد عشت أربعين سنة من عمرك وحيدًا فمتى؟

إن الهالة الميتافيزيقية لهذه الفتاة غنية فعلاً.

كان الدكتور كثيرًا ما يحدثني عن فلسفة برجسون وهو يتمشى في حجرة مكتبه محمومًا، ويقول أن برجسون كعالمٍ ميتافيزيقي هو الذي اكتشف الطبيعة المزدوجة للأشياء، مثلما اكتشف علماء الفيزياء الطبيعة المزدوجة للجسيمات: جسيم+موجة، كذلك اكتشف برجسون أن الشيء=فيزيقا+ميتافيزيقا، لما لم أكن أفهم كان يقول: أنت تتعامل مع سيارتك بشكل نفعي يوميًا، الأهم أن تكون في حالة جيدة بحيث توافق استخدامك وتستحق ثمنها، لكنك حين تستبدل بها سيارة أخرى تشعر بحنين لا ينكَر لها، ولو كنت رسامًا لرسمتَها مثلما رسم فان جوخ الأحذية، ولو كنت شاعرًا لكتبتَ قصيدةً عنها، هكذا افترض برجسون أن الميتافيزيقا ليست وجودًا مفارقًا بعيدًا فوق العالم أو وراء العالم، وإنما هي وجود (حول) كل شيء، كل شيء حوله هالة ميتافيزيقية سمكها بضعة سنتيمترات، وهكذا فإن الفنانين أقرب إلى الميتافيزيقا في الحقيقة من رجال الدين، وكما اكتشف العلماء الطبيعة المزدوجة للجسيمات: جسيم+موجة، واكتشف برجسون الطبيعة المزدوجة للأشياء: فيزيقا+ميتافيزيقا، فأنا سأكتشف الطبيعة المزدوجة للحياة: مادة+مادة أخرى، وأعترف أنني

لم أفهم نصف هذا الكلام، ولكن على كلٍّ يبدو أن الدكتور قد وجد الهالة الميتافيزيقية-أيًا ما كانت-لتلك الفتاة ناعمة أو دافئة أو فياضة الأنوثة.

كان الصباح التالي مشمسًا باردًا من نوعية الصباحات التي تروق الدكتور، كنا نجلس ثلاثتنا حول المائدة بجوار النافذة الزجاجية الضخمة، وكانت الصحفية متألقة وعلامات النوم على وجهها تمنحها ألفةً وجمالاً بكرًا، وكانت تمزح قائلةً:

-إذن يا بروفيسور.. أنت ستعيد لي جدتي؟

كان أكثر هدوءًا من البارحة، لكنه أجاب في جدية لا تخلو من حماسٍ:

-لو كانت محفوظة في الثلاجة يا عزيزتي وكل أعضائها سليمة، فمحقن بسيط مليء بالأنيما يستطيع إعادتها.

سألته في جدية أكبر:

-وممَ استخرجتَ الأنيما؟

-من غشاء الخلية، كل خلية حية أو بروتين حي فيه قدر من هذه المادة، وهذا معناه أن الروح ليست مغايرة للمادة، إنها مجرد مادة (أخرى).

-ومن أين جاءت؟

رد وهو يفرغ لها مشروبًا:

-إن تكوينها بسيط جدًا يمكن فعلاً أن يكون قد تم كمصادفة طبيعية، لا أحد يعلم بدقة، لكني أقبل كل الفروض بدرجة متساوية في غياب التجريب.

-هل تؤمن بالله يا دكتور؟

تصلبتْ قسماته وسط دائرة شعره ولحيته وهو يقول:

-أومن بوجوده إيمانًا قويًا.

-إذن فمن المحتمل أنه هو من منح روحًا أو حياةً لتلك المادة، لكنها ليست الروح بالمعنى الدقيق.

-تجاربي أثبتت أنها حية بذاتها، وفي التراث الديني الإسلامي نقرأ أن الله (نفخ) في آدم من روحه ليحييه، وأنه جعل من الماء كل شيء حي، إن هذه المادة فعلاً أقرب إلى عناصر الهواء المذوبة في الماء.

لم نفعل شيئًا تقريبًا في تلك الفترة سوى حضور المحاضرات والمؤتمرات وقضاء الوقت في مثل هذه الأحاديث، وصارت أنجربودا تصحبنا في كل مكان مرحَّبةً كصديقة، وكان المؤتمر الأخير تحت عنوان: (**تكنولوجيا الخلود**)، يضم علماء من جميع الجنسيات، وكان الدكتور قد اعتراه الإرهاق من كمّ المحاضرات والنقاشات والأحاديث الصحفية، لكنه وقف يقول في لهجة خطرة لها كل مبرر:

-إن المشروع يتطور بسرعةٍ هائلة، منذ شهر واحد توصلت مع فريق عملي في الولايات المتحدة إلى أفضل طريقة للحياة إلى الأبد اعتمادًا على مادة الأنيما، تحويل الإنسان إلى أميبا عملاقة، أو بالأحرى مستعمرة من الأميبات التي تعمل كل واحدة منهن على البقاء حية بمفردها رغم انقطاع الدوران لمدد لا نهائية بفعل رفع مستوى الأنيما في غشائها، أو ما أسميناه بالحياة على المستوى الخلوي، وقد نجحت أغلب تلك التجارب على الحيوانات نجاحًا كبيرًا.

صفق الحضور حماسًا، إن لا أحد هنا لا يحسد هذا الرجل.

سأله أحد العلماء بإنجليزية رديئة:

-هل سنصير آلهةً؟

-لا، لن نصير آلهةً، لكننا سنكون لا آلهة ولا بشرًا، لسنا مطلقي القدرات، لكننا مع ذلك غير فانين، هذا هو سفر تكويننا الجديد.

سأله أحد علماء معهد اللاهوت الذي استضاف المؤتمر:

-ولكن بعد تطبيق هذا النوع من التكنولوجيا ستفقد فكرة الجزاء الأخروي معناها، لن يموت أحد ليُخلَّد في الملكوت أو الجحيم.

كان الدكتور مجادلاً قديرًا:

-بلى، سنتوصل يومًا إلى إعادة إحياء جميع البشر من رفاتهم، فأمامنا الأبد كله لنحلم ونحاول، وسنخلد جميعًا في الحياة الكريمة التي سنصنعها هنا على الأرض، أو نعذَّب جميعًا في الجحيم الذي نوقده، وهكذا تجد أن جميع الأديان مع بعض التأويل قابلة للحياة إلى الأبد هي الأخرى.

كان الموضوع يجذب علماء اللاهوت والفيزياء والكيمياء والأحياء وغيرها، فقد كان موضوعًا مشتركًا بين علوم الكيمياء والطبيعة والحياة وما بعدها، وفي الجلسة التالية سأله أحد اللاهوتيين متهكمًا:

-ومتى ستكتشف الله يا بروفيسور؟

رد الدكتور عابسًا:

-إن أمثال هذه الأسئلة التهكمية هي التي جعلتني على رءوس عدة قوائم اغتيال في كل أنحاء العالم، ومع ذلك أجيبك بأنني اكتشفتُ الله بداخلي، وسأكتشفه خارجي لو شاء فيزيائيًا، كما اكتشفتُ الروح ذاتها.

فهز البعض رءوسهم في استياء.

فتاة نحيلة رفعتْ يدها في شجاعة وسألتْ:

-سيدي.. لم أفهم بعد كيف تُكسب هذه المادة على بساطتها الحياةَ لأجسامنا.

تنهد الدكتور في إرهاق ومسح على لحيته وقال:

–لقد شرحتُ هذا عشرات المرات في كل أوروبا، هذه المادة يا عزيزتي على بساطتها يملك تركيبها الجزيئي شكلاً يصعب شرحه، لكنه يمارس الوجود في أبعادٍ خمسة، فيتخطى حدود الأبعاد الأربعة المعروفة لعالمنا، وبالتالي يمكن لها أن تحرك أجسامنا كما تحرك يدا محرِّك العرائس عروسته من خارج المسرح، هذه المادة خارج الأبعاد الأربعة للمسرح، وهي في الوقت نفسه اليد داخل القفاز، وإنني لواثق أن هذه فقط نقطة البداية التي تتبعها خطوات أوسع وأكثر حسمًا نحو الخارج، خارج أجسامنا، وخارج المسرح كله.

كان لا يملك تواضعَ عالِمٍ، بل طموح شاعر.

وسبحت كرتا عينيه في غلالة ميتافيزيقية حول كل شيء.

* * *

-2-

العودة إلى أمريكا

عدنا إلى الولايات المتحدة حيث مقر إقامتنا الدائم، فالوسط في أي بلد عربي غير صالح لنشر وإكمال أبحاث الدكتور، بل غير قابل لحياته أصلاً، وبات المحافظون الدينيون حول العالم يترحّمون على أيام داروِن الطيب الذي كان يردد في خشوع أن أصل الإنسان قرد.

كانت أنجربودا بطبيعة عملها كثيرة الأسفار، ولحقت بنا في الولايات، وأنا أكيد من أنها كانت أسعد فترة من عمر الدكتور، فقد كانت أنجربودا منبهرة به كأنه الرجل الوحيد، لقد طابق حلمها برجل فريد، عبقري من عباقرة العالم التاريخيين، لا أحد مثله، أضف إلى ذلك أخلاقه وصدق شخصيته وهي صفة فطرية فيه، لكن شخصيته ازدادت قوة وجاذبية بعيْد اكتشافه الأخير، وهو أمر طبيعي كما لا خلاف.

هو أيضًا كان معجبًا بها كامرأة قبل كل شيء، وقد عاش وحيدًا قبلها لأنه لم يجد من تفهمه وتقدر ما يقدره حقًا في ذاته، الآن لم يعد في حاجةٍ للبحث بعيدًا، إن أنجربودا عرفته منذ البداية من حيث

رغب أن يُعرف دومًا من البداية، فربما استحقت جائزة نوبل هي الأخرى على هذا الكشف.

إنها معادلة لا مجال للخطإ في حلها، لقد تكاثفت اللقاءات بينهما وصارا يخططان للزواج والإقامة في الولايات، تم كل هذا فيما لا يزيد على شهر، والغريب أنني بدأت أشعر بغيرة من هذه الحسناء التي جاءت من ضفاف الراين، لقد ظللت طيلة عشرة أعوام من إعداد رسالة الماجستير والدكتوراه الرفيق الوحيد للدكتور، وكنت أومن به منذ أن دخل أولى المحاضرات لدفعتي في كلية العلوم، مذّاك تابعته في كل محاضراته بالكلية لمختلف الفرق، وفي كلية الآداب أيضًا حين كان يدرّس فلسفة العلم، وصرت أجلس مثله وأتحدث مثله وألتهم طعامي مثله، فلو عرفت كيف يدخل الحمام لدخلت مثله، لقد تبدى لي تدريجيًا في صورة أحد العلماء العظام الذين كنا نرى صورهم المرسومة والفوتوغرافية في المراجع والموسوعات، وكنت لا أطيق أن يهاجمه أحد مهما بلغت درجة تخصصه، وشيئًا فشيئًا صرت أقرب الناس إليه، وصرت أنا الذي أرد على هاتفه، وأنا الذي أراجع بريده الإلكتروني، وأنا الذي يقرأ كتبه قبل أن يقرأها أحد.

على أن استبدال زوجته بي جزئيًا أتاح لي فرصة أكبر لإنهاء الفصول الأخيرة في رسالتي للدكتوراه، خاصةً وأنها صارت ترفض أغلب السفريات إلى أوروبا ولا تكاد تغادر الولايات، وفي هذه الأثناء

بدأت أنفصل إلى حد ما عن الدكتور وأهتم أكثر بأبحاثي، وكان يمر علينا الأسبوع دون أن أراه، وكانت زوجته تعاملني بود نابع من احترامها لزوجها العظيم، لكنني لم أستطع التخلي عن كراهيتي غير المبررة للأجانب، ربما بسبب انطوائي الطبيعي، ولم أكن نقي البال تمامًا لأسباب أخَر.

بدأت أزداد عزلةً وكآبةً، كنت دائمًا هش النفس سريع الاكتئاب، لقد بدأت أشعر بتضاؤل حقيقي، وأبحاث الدكتور تزداد شهرة وكتبه يتم تبسيطها وشرحها وترجمتها إلى كل اللغات عبر مؤلفين نذروا حياتهم لذلك، لقد أحدثت مؤتمرات أوروبا التي حضرتُ أغلبها شروخًا عميقة في نفسي تكاد تقضّ أصولها، حتى خشيت ألا أتمكن من إكمال رسالتي في الموعد المناسب رغم التفرغ، ما الذي سأنجزه طوال عمري مهما حاولت؟ إن لكل عقل حدودًا، ورغم رفضي الشديد لهذه الفكرة قديمًا إلا أنني بدأت أومن بها مؤخرًا، ولكن هذا الشعور لم يؤثر على علاقتي بأستاذي حتى بيني ونفسي.

لكنني عدت إلى الصورة بقوة حينما قرر الدكتور استئناف العمل في مشروع الخلود، كنت مشرفًا علميًا وإداريًا على أحد أهم أقسام المشروع الذي ما يزال مشروعًا بحثيًا يحتاج إلى ملحمة من التجريب قبل تطبيقه على البشر، هذا المشروع أثار تحفظ وغضب الكثير جدًا من الجماعات والأحزاب الدينية حتى داخل الولايات، وزاد عدد

رسائل التهديد التي تصل يوميًا عبر بريد الدكتور بنسبة مثيرة للرعب، لو كانت هذه الرسائل جادة لفنيت البشرية عن آخرها حتى لو طبِّق المشروع، ولعدة أيام لم يعد بريد الدكتور يستقبل تقريبًا سوى رسائل القتل والتدمير باسم الإله أو البشرية، باسم كل إله وأي بشرية، ولم يكن الدكتور ميتًا بالفعل لكيلا يخاف، لكنني أدركت تدريجيًا أنه كان يتصور سباقًا بينه وبينهم، لو أنه استطاع تطبيق المشروع، وهناك عشرات الممولين المتحمسين، فلن يمكن لبشر النيل منه، كما أن فلسفة الأمر الواقع أقوى غالبًا من أي محاولة للتغيير الراديكالي، لهذا انهارت الاشتراكية والمشروعات الإسلامية المتطرفة معًا وبقي الغرب الليبرالي لأنه واقع، ولأن الإنسان أكثر نذالة من أن يعترف لنفسه أنه أكثر من رسوم متحركة.

حذرتُ الدكتور كثيرًا وكذلك فعلت زوجته، نصحناه بالإسرار لكنه لم يزدد إلا عنادًا، وردد أن للناس معرفة الحقيقة، ولئن قُتل فسيعرف الناس لماذا، لا توجد تجارب محرمة، ولم تتورع البشرية قط عن تجربة فكرة مهما بلغ رفضها، وبرغم رفضه هو الشخصي للحصول على التمويل من الجهات المقترحة إلا أنه كان يفكر للبشرية، كان يفكر فوق كل حد سياسي أو أيديولوجي، ويؤمن بالتقدم اللا محدود للإنسان، وبدأ التفكير في فلسفة جديدة، إن الخلود سيحقق توازن الرعب الحقيقي، على مستوى الأفراد هذه المرة لا الدول، ستصير الحرب بلا معنى حين يستعصي على الناس الموت،

ستعمر البشرية كل الكون وتنال خلاصها عبر إبرة محقن، لقد بدأت الحياة في بركة أو مستنقع لتستمر في المعمل، بدأ الإنسان كائنًا معقد التركيب ضعيف البنية، وسيستمر إلى الأبد أميبا بسيطة التركيب تعيش في كل ظرف ممكن أو غير ممكن، يا له من مجد!

كان الدكتور يخشى المنافسة المجنونة برغم ثقته في فريق عمله، وهو ما جعله يحتفظ لنفسه فقط بمعرفة بعض خطوات المشروع الدقيقة التي لا يتم بدونها.

أنا وحدي لاحظت كيف صار يستمع إلى الحركة الثالثة من سيمفونية تشايكوفسكي السادسة[1]، كنت أسمعها تدوي من خلف باب حجرة مكتبه المغلق، وظِلُّه يروح ويجيء من أسفل الباب في جنون، حدثني كثيرًا من قبل عن هذه الحركة بالذات وهو يرتجف:

–المارْش الشيطاني، هذه الحركة لا بد وأنها تصور المارش الذي يقوده الشيطان إلى الجحيم، إنها موسيقى مخيفة، ومع ذلك قادرة على إحياء الجماد، إن نغماتها تتغلغل في أعصابي وتسير فيها كالنمل، فأشعر بأنني أتذبذب، أنهار، وأنفجر، ومن المعتاد أن تصيبني نوبة أرتيكاريا حادة بعدها، فأشعر وكأن جلدي يُطهَى دون نار، ويتقشر من النضج على لحمي.

---

[1] - الحزينة **Pathétique** مصنف 74.

كانت عيناه تلتمعان ببريق مجنون وهو يتكلم فأظن بعقله الظنون، أعتقد أن العقل درجة من درجات النفس، فإذا عرفتَ الآخرين أكثر وأعمق للمستَ جنونهم مستمرًا إلى الأعماق كفجوة بلا قرار.

-إن هذا الرجل-يقول الدكتور عن تشايكوفسكي-كان وراء الرجل والمرأة؛ لأنه كان شاذًا، فصار بهذا أقرب إلى الشيطان.

-3-

الدكتور الخلويّ

رنين الهاتف يستدعيني من عالم آخر، لقد صار رنين الهاتف أو المنبه المعادل الطبيعي لصور إسرافيل والعكس منذ زمن طويل، وكنت أتخيل تلك اللحظة التي سأنهض فيها من القبر تمامًا كما أنهض من النوم على صوت الرنين، رنين يؤذن بالأبدية، ولم أكن أتوقع الدرجة التي يمكن أن يصلها التشابه حين اتصلت بي أنجربودا في فجر ذلك اليوم لتخبرني خبرًا عجيبًا، أن الدكتور الآن في إحدى المستشفيات بعد أن أجرى تجربة الخلود على نفسه، لقد صار خلويًا، أول بشر خلوي في التاريخ.

كانت مرتاعة من الخبر المفاجئ الذي علمتْه هي قبل أن تتصل بثوانٍ، ولم أحاول تهدئتها، بل أسرعت أرتدي ملابسي واصطحبتها بالسيارة إلى حيث هو.

لقد نصحتُه ألف مرة ألا يجرب، فسألني في حزنٍ واستنكار: "إذن أأموت؟"، وكنت أردد: "لا تمت ولا تجرب، هناك ألف متطوع لو شئت واحدًا"، لكنه كان يريد أن يكون الأول، أول الخالدين، أو أول

ضحايا التجربة، كان يريد الخلود أو الشهادة، ولم أعرف حتى الآن بأيهما فاز.

كانت أنجربودا تهلوس طوال الطريق بألمانية لا أستطيع فهمها برغم معرفتي بالألمانية، ولكننا بمجرد أن وصلنا إلى المستشفى لم نستشعر خطرًا ولا غموضًا، كان المكان يعج بالصحفيين وهم يرددون ما يفيد نجاح التجربة، كنت في تلك الهنيهة المبكرة ما أزال في طور الحلم، ولم يبد لي كل هذا حقيقيًا، هل صار العالم العظيم خالدًا بالمعنى البيولوجي للكلمة؟

دخلنا غرفته في شبه اقتحام، وكان يدون بعض الملاحظات في سرعة في دفتره، لا بد أنها عن شعوره بعد التجربة، احتضنته زوجته باكية وهو زائغ العينين، كان شبه مصدوم لكنه مسرور تمامًا، نظرتُ إلى دفتره نظرةً خاطفة، لكنه أغلقه بإحدى يديه ويده الأخرى على كتف زوجته، ثم وضعه على الكومود المجاور، وقال:

-أنا بخير يا حبيبتي، بخير يا محمود، سنكون جميعًا بخير.

وجلسنا قليلاً نتبادل أحاديث خفيفة، ثم دعانا لتناول الإفطار جوار سريره الذي لم يكن بحاجة إلى الرقاد فيه في الواقع، وظل يثرثر في حماس:

-سأخضع نفسي لمئات الفحوصات، لقد تضمنتْ التجربة محاولة قتلي بالفعل اختناقًا، لكنني حيٌّ أمامكما، حقنتُ نفسي بالأنيما ثم قطعتُ الهواء عن رئتي لفترة كافية للموت، إن كل خلية من خلاياي تعمل منفردة بشكل يحفظ حياتها، لكنهن جميعًا يعملن لصالحي، إنني حي، حي أكثر من أي حي على الأرض، فقط مررت بإغماءة بسيطة قادتني إلى هنا، وأظنها من الأعراض الخفيفة للتجربة.

وابتلع ما في فيه وغمغم في حلمٍ:

-(نيو هارموني)، سأبدأ بمدينةٍ هنا في أمريكا كلها من الخالدين، تيمنًا باسم المدينة التي أنشأها الاشتراكي الإنجليزي العظيم (روبرت أوين) في أمريكا أيضًا، هو أيضًا تحدى العالم، غير أن مشروعه فشل وذهبتْ نيو هارموني وذهب أوين، لكنني جئت ولا أنوي الرحيل.

آهٍ من الذكرى! من كل ما حكيت وسأحكي ظلت تلك اللحظة أعز ذكرياتي التي عشتها مع أستاذي وزوجته، لا أدري السبب، ربما لأنها كانت نقطة التحول الأساسية، آخر زمن البراءة، أو لأننا كنا سعداء بهذه البساطة، كانت الشمس تشرق على وجوهنا، وتصبغ جدران الحجرة بلون برتقالي واهٍ، والمستقبل أمامي كان يبدو أوضح من كف يدي، وبلا نهاية.

أنهينا الإفطار سريعًا واتجهنا إلى المعمل، لكنني بعد قليل انطويت عن الجميع، فارقتْ الابتسامةُ ملامحي، ولم أعد أظهرها إلا إذا تلاقت عيوننا أنا والدكتور، فإذا خلوت إلى نفسي تذكرتُ ما استطعت قراءته من دفتره:

"إنني أرى أشياء"

لكنني لم أخبر زوجته.

***

على مر أيام خضع الدكتور لاختبارات قاسية عديدة، حتى استطعت في النهاية مع فريق عمله إعلان نجاح التجربة، وقد أثار الخبر زوبعة فكرية ودينية وسياسية لا تُنسى في كل ولايات أمريكا وبلاد العالم، حتى أن المرشح الجديد للانتخابات الرئاسية أمام الرئيس الأمريكي أعلن عن تغيير برنامجه لصالح دعم المشروع سياسيًا، وتقبله لفكرة نيو هارموني، وهو ما أثار سخرية الدكتور حين سمع الخبر، لأنه لم يصرح على الملإ بفكرة نيو هارموني، الأمر الذي يدل على وجود جواسيس كان يتوقع وجودهم بالطبع، لكنه لم يتوقع أن يسرف المرشح الجديد في الكلام إلى هذا الحد.

ومرت فترة لا أستطيع الزعم أنها سعيدة تمامًا، ما زلنا قلقين على صحة الدكتور، ما زلنا نتلقى رسائل التهديد، واضطربت حالة

أنجربودا بسبب حملها، كانت قلقة كحال أي أم لأول مرة، وأُضيفَ إلى هذا قلقها على حياة طفلها في هذه الأسرة المهددة، لكن القلق غير المبرر من وجهة نظري هو قلقها من تشوه الطفل، كانت تحلم أحيانًا أنها تلد طفلاً مشوهًا أو ناقصًا، رغم أن الأطباء طمأنوها تمامًا من هذه الناحية، وربما كانت تفسر هذا الهاجس بأن زوجها–ومعذرة للفظ–أميبا بشرية!

اعتبرتُ كل هذا تخريفًا، لكنني، وأعترف، كنت أشعر أنا الآخر بقلق مبهم، ربما خوف، وصحيح أنه لم يكن مبررًا هو الآخر لكنه لم يكن بلا داعٍ، فهذه الفترة حملت تغيرًا كبيرًا في حياة الدكتور.

لقد صار كثير الاعتكاف في حجرته بدعوى القيام ببحث جديد واحتياجه للتركيز، لكنني لم أكن أحمق، لماذا إذن لم يعد يناقش معي ما يجول بخاطره؟ لقد صار غريبًا كثير الصمت، ورويدًا رويدًا تطفّلَ على عينيه حزنٌ لا ينقشع، ثم أصبح يمر بطور اكتئاب شديد وقلة طعام وهزال، والحقيقة أنه صار غريبًا تمامًا وفي توقيت مستحيل.

وتوقف مؤقتًا مشروع الخلود بعد إنتاجه الوحيد الذي تلخص في صاحب المشروع نفسه، وبدا الدكتور شديد الانشغال بكشف آخر، كشف أغرب وأكثر هولاً لدرجة أن يصرفه عن مشروعه الذي جازف بحياته عمليًا في سبيله.

لم أكن منقطع الصلة تمامًا به، واستطعت معرفة طبيعة الكشف الجديد، إنه ذلك السؤال القديم عند الدكتور عن لماذا يبدو لون الفضاء حولنا أسود، وهو سؤال يبدو مضحكًا لغير المتخصصين، لكنه إشكال علمي حقيقي، ومحيّر، ولا بد أن للدكتور فروضًا عبقرية غير مسبوقة، لكنني لم أعرف في هذه المرحلة أكثر من ذلك.

خفت كثيرًا من أجله وكذلك خافت زوجته التي لم تعد تراه كثيرًا، دائمًا هو في حجرة المكتب بمعمله على بعد غير قليل من بيته، وكان هذا أسوأ ما تتعرض له الزوجة باعتبارها حبلى، كما كنت أنا أيضًا في حال مقاربة من السوء لأنني كنت على وشك وضع الفصول الأخيرة من رسالتي، وهو لا يتابع عملي على الإطلاق.

ثم لم يعد يتابع شيئًا.

كانت هذه هي المرة الثانية التي توقظني فيها زوجته هاتفيًا في الفجر لتخبرني في فزع أن زوجها تم نقله إلى المستشفى، وكالمرة الأولى صحبتها إليه بجنينها، وحين وصلنا أثار توجسنا ما وجدناه من إحاطة محكمة للمستشفى بقوات السوات Swat، كأن المستشفى تتعرض لهجوم إرهابي أو كأن حولها مظاهرة تستحق تدخل السوات أنفسهم،

كان الأمر لا يبدو طبيعيًا على الإطلاق، وبدا لي فور استيقاظي كابوسيًا مظلمًا يختلط بظلام ما قبل الشروق.

صعدنا إلى غرفته بعد أن أكدنا صلتنا به.

وراعنا ما رأيناه.

***

كان الدكتور يرقد في حجرة داخل حجرة، فحَوْل سريره قامت جدران من البلاستيك الشفاف محكمة الغلق، كان يرقد في غيبوبة تامة متصلاً بجهاز للتنفس الصناعي، لكن أغرب ما في المشهد وأكثره إثارة للفزع كان زي الأطباء والممرضين من حوله داخل البلاستيك وخارجه.

لقد كانوا يرتدون بذلات شبيهة ببذلات الفضاء كأنما يتعاملون مع فيرس خطير أو جسم مشعّ.

لم نكد نتجاوز الباب داخلين حتى اعترضنا طبيب نرى وجهه من خلف خوذة بلاستيكية ومعه أحد ضباط مكتب التحقيقات الفيدرالي، وقال:

-أرجو المعذرة، هذا أقصى مدى نسمح لكما به.

هتفت زوجته دامعة:

-ماذا به؟ لماذا ترتدون هكذا؟ ما الذي يحدث؟

-صدقيني يا سيدتي أننا لا نعرف بالضبط، ولكن الأمر يبدو أثرًا غير متوقع للتجربة التي أجراها على نفسه.

عارضه الضابط في عناد:

-بل يبدو اغتيالاً من نوعٍ ما يا سيدتي.

واستطعنا فيما بعد أن نجتمع بأحد الأطباء وضابطين فيدراليين ليطلعونا على حالته، ولم يفتنا أنهم أكثر حيرة ودهشة.. وخوفًا، لا أعرف المدى الذي تم تصعيد القضية إليه، لكنه ولا بد كان خطيرًا، بدا لي أنهم يتعاملون مع قضية ذات أولوية أمنية متقدمة، وكان الهاجس الأمني ونظرية الإرهاب حاضرين في العقل الأمريكي كما هما منذ عقود، لكنني أدركت من طرف خفي مدى فزعهم، ربما لو كانوا يتعرضون لغزو من الفضاء الخارجي لبدا أمرهم معقولاً.

ولكن ما المعقول في كل هذا؟

تم استجوابنا بشكل دقيق، ومررت بوقت عصيب وأنا أفشي بعض أسرار المشروع العلمية والتمويلية، لكن الأمر كان أكبر مني، لا أعرف إن كان الدكتور سيفيق ليجد وقتًا للغضب أصلاً أم لا.

ولكن بعيدًا عن كل ذلك، أستطيع الآن أن أصف حالة الدكتور حين وجدوه شبه ميت في معمله، وبشكل أكثر هدوءًا واتساقًا مما أخبرني به الطبيب والضابطان.

السبب ما يزال مجهولاً، لكن الواضح حتى الآن أن خلايا الدكتور تنتج دخانًا أشبه بعادم السيارات، قد يبدو هذا مضحكًا لكنه بدا لي ساعتها بشعًا ومرعبًا، ولكن الأبشع أن الدكتور ظل يفرغ هذا الدخان من فمه وأنفه بلا انقطاع بدلاً من أن يتنفس، وجدوه هكذا في معمله بعد أن استطاع ضغط زر الإنذار في آخر لحظة، وكان الدخان يملأ المكان، ولا داعي لذكر أنهم تعاملوا مع كل من استنشق هذا الدخان كمريض الإيبولا أو الملوث بجرعة عالية من الإشعاع.

لم يعرف أحد في النهاية لماذا تنتج خلاياه هذا العادم الذي ترشحه رئتاه، وإن كان أحد العلماء المقربين للدكتور أفتى بأن هذه عملية احتراق على البارد، بمعنى أن هذا الدخان هو ناتج الاحتراق، وهذا معناه أن كل خلية في جسده تُستنفد، ولن تعود لدينا حتى بقايا اسمها الدكتور محمد عبد الله، إنه يُشوى عمليًا دون نار كالدجاجة، لكنه حاليًا ما يزال حيًا، وفي غيبوبة.

وكان الاعتقاد العام لدى الهيئات الأمنية أنه اغتيال بيولوجي من نوع متطور، إن عدد رسائل التهديد الخرافي الذي وصلنا يدفع حتى بأكثر التحقيقات ابتكارًا في هذا الاتجاه، بينما كانت الجهات الطبية تؤكد أنها أعراض غير متوقعة للتجربة الفريدة، وهو دليل على فشلها، وبدا لي كل هذا لأسباب كثيرة غباءً شديدًا، لا يمكن أن تؤدي التجربة إلى ذلك طبقًا لأي مسار، ثم من ذا الإرهابي أو المتعصب الذي يقتل بهذا الشكل المعقَّد؟ لا أنكر أن ذلك الشكل قد أثار فزع كل من يعمل أو يموِّل المشروع إلى أقصى حد، على أنني فهمت أنهم يحتفظون بالقدر الأكبر من الأسرار لأنفسهم بسبب الطابع الأمني للقضية، كما أن الطريقة التي تعاملوا بها مع الوضع تشي بأنهم على الأقل قد استبعدوا فعلاً أي سبب تقليدي لهذه الحالة كالاغتيال أو فشل التجربة، واعتقادي الخاص أنهم كانوا يتعاملون من منطق الخوف، الخوف وحده، الخوف مما يفزعهم ولا يعرفون.

ثم بدأ الدكتور يفيق.

لم يتكلم، لا يستطيع أن يتكلم على أية حال مع تدهور حالته الشنيع، أكثر الأطباء قالوا أنه سيموت في ظرف يومين على الأكثر، طلب فقط دفتره وراح يدون ملحوظاته، ثم غاب في إغماءة أخرى، ثم أفاق ليدون، وظل هكذا ساعات، ولم تسفر التحقيقات معه عن

جديد، لكنهم لم يصدقوا ما أكده من أنه وجد نفسه فجأة هكذا.. ولا أنا بصراحة.

قال له أحد العلماء العاملين في المشروع:
-أيًا كان من قتلك فهو عبقري.

كدت أرد عليه ردًا قاسيًا، لكن الدكتور غمغم في وهن:
-ليس عبقريًا.

ثم هز رأسه نافيًا مرارًا، وقد أثار هذا الموقف في أعماقي تساؤلاً بلا حدود.

وفي مساء يوم 12 إبريل أعلنت الأجهزة ثم الأطباء نهايته، وكان هناك الكثير من التفاصيل السرية، لكنني لم أتوقع أبدًا أن يضطروا إلى إعدام جثته بالإشعاع وتطهير الغرفة والأجهزة وفحص كل من تعامل معه، وبدا لي كل ذلك ستارًا ختاميًا شديد الغموض ومخيفًا لعرض قصير مفزع لم يتحرك فيه البطل نفسه سوى دقائق قبل أن يموت.

ولم أكن أتوقع أيضًا أن هذا ليس الستار الختامي، فبعد الحادث الأليم الذي لم أجرؤ على محاولة نسيانه، والذي زلزل كياني تمامًا، رحلت أنجربودا إلى بلدها، وظلت على اتصال بي حتى وضعت

حملها، وكانت أنثى كما أخبرتني، ثم قطعتْ كل اتصال، حاولت معرفة أي خبر عنها لعدة أشهر، حتى استطعت معرفة أنها نزيلة في إحدى المصحات النفسية، عددت هذا طبيعيًا بعد كل ما مرت به، لكنني فهمت أنها لم تكن مرت بعد بما يعتد به بالمقارنة مع ما حطم أعصابها تمامًا في ألمانيا، لقد وُلدت طفلتها ناقصة، ولدت بدون فكها السفليّ، شعرتُ أن كل شيء ينهار أو أنها نهاية العالم، وأصابتني بعد ذلك حالة من الخوف المستمر والاكتئاب، لم أتخلص منها بعد حتى لحظة رواية هذه الأحداث.

لقد تغيرت حياتي، لن أعود كما كنت أبدًا، عدت إلى مصر دون أي خطط بصدد مستقبلي، لم أعرف إن كنت سأكمل رسالتي أم لا، وتركت كل ما له علاقة بمشروع الدكتور، لقد انتهى من كان روحًا لي في حياتي العلمية والشخصية، انتهى قتيلاً، لم أتوقع له نهاية أقل مجدًا على أية حال، لو عاش خالدًا لما مر بموتٍ مجيد، لا معنى للمجد في الخلود.

انتهى هذا الجزء من الحكاية ووضعت الدراما قلمها فيما بدا، انتهى مشروع الخلود بوفاة صاحبه وانتهى حلم نيو هارموني، وتم إغلاق هذا الملف، لكن كان عليّ أن أتخطى كل هذا لفتح ملف جديد رهيب، هو دفتر الدكتور الخاص الذي حمل كثيرًا من مذكراته وملاحظاته قبل أن يموت، وقد كان أملي الوحيد في أن أفهم، لقد

خضع هذا الدفتر للتحقيقات لكنهم لم يفهموا شيئًا، أنا سأفهم لأنني أعلم بالدكتور وبالمشروع وبالفيزياء وباللغة العربية التي كتب بها، لقد فررت بجلدي من أمريكا قبل المزيد من التحقيق أو التورط في أي شيء مع الجهات الأمنية أو غيرها، فررت ومعي فقط حرفيًا هذا الدفتر وملابسي التي أرتديها.

وعلى الطائرة التي تقلني إلى مصر أخرجت الدفتر لأتصفحه للمرة الأولى، قلّبت في الأوراق بشكل خاطف فبدا لي ما التقطته عيناي من كلمات وجمل متناثرة مزعجًا، مزعجًا ويبعث على التشاؤم من البداية، والمصادفة الغريبة أن أول ما وقعتْ عليه عيناي وأنا أتصفحه كانت تلك العبارة الوحيدة التي اختلستها منه في المستشفى يوم التجربة إياها:

"إنني أرى أشياء"

***

القسم الثاني

أمسياتٌ غير حميمية

بقلم: د. محمد عبد الله

"لن يكون سوى أنا وأنت

نحن أطفال الكون الأشقياء

سنلعب كثيرًا معًا

أنا وأنت

أنت وأنا

أما الآخرون..

فسيغرقون حين تنفجر الفقاعة

التي اسمُها الكون

لأن أحدًا لا يبالي بهم

الذي اسمه واحد

وهم.. لا يعرفون

الذين هم بلا أسماء"

10 يناير:

رغم كل التهديدات التي تصلني وتحذيرات محمود وزوجتي إلا أنني سأجري التجربة على نفسي، يجب أن أعرف بنفسي كل شيء، وأن أعيش بنفسي لحظة نجاحي لا عبر وسيط، إنني موشك على تحقيق إنجاز مذهل، والليلة سأبدأ أولى التجارب على البشر.

إن الخطوة الأولى هي...

11 يناير:

منذ نصف ساعة مررت بالتجربة، لقد أصابني إغماء بسيط فضغطت جرس الإنذار في معملي قبل أن أفقد الوعي، وأنا الآن في المستشفى، حالتي مستقرة، أبلغت زوجتي بأنني هنا وهي على وشك الوصول، إنني أول إنسان خلوي في التاريخ، لقد صرت بطلاً كأبطال الكوميكس، لست رجلاً وطواطًا ولا عنكبوتًا، أنا أول رجل أميبا، وهذا معناه أنني أكثرهم تفوقًا بكل بساطة لأنني لا أموت بمعظم الوسائل التقليدية، قد تصيبني رصاصة في قلبي ولا أموت، أخشى فقط أن أتمنى الموت ذات يوم.

إنني أعاني من دوار خفيف.

إنني أرى أشياء.

لا أعرف ما هي بالضبط.

لكن زوجتي ومحمود قد يحضران في أية لحظة، وعليّ أن أكون في أحسن حال عند استقبالهما.

20 يناير:

مررت بكل الاختبارات الأساسية وأعتقد أنني نجحت، إنني أشعر الآن بسعادة حقيقية قد تفوق فرحتي بخبر نوبل.

أستطيع الآن أن أقود العمالقة إلى السماء.

الحلم القديم يراودني.

كيف نهرب من خشبة المسرح؟ إن لنا الروح، وهي الخطوة الأولى، إن لنا قدمًا في الدنيا وأخرى خارج العالم، إننا على بعد خطوة واحدة من الخارج لكننا لا نعرف في أي اتجاهٍ نخطو.

لماذا يبدو لون الفضاء حولنا أسود؟ لأن حولنا في الأبعاد السحيقة للكون جدرانًا سوداء تمتص الضوء في كل اتجاه، نحن في علبة كبيرة، لكننا نملك القدرة على الفرار، وحين نهرب هل سنملك حريتنا كاملة مِن الزمان ومن المكان ومن القدر؟

إن الأمر يستدعي أن نجرب.

21 يناير:

لقد بدأت مشروع كتاب جديد، أظن أن عنوانه سيكون: عبر القدر، أو الهرب من القدر، أو فلسفة السفر عبر القدر، هذا أفضل، لأنه يتناصّ مع فكرتنا عن السفر عبر الزمن، ما قيمة السفر عبر الزمن وهو نفسه خاضع لمسار القدر؟

سأحسم أمر العنوان ومقدمة الكتاب بعد أن أكتب فصوله الأولى على الأقل.

إنني الآن أراها.

لست أدري إنْ كان هذا من أعراض التجربة أم...

22 فبراير:

لقد توصلت إلى أفكار مذهلة، إنني أقترب، بل كنت أقرب مما كنت أتخيل، نحن لا نحتاج إلى سفينة فضاء ومثقاب عملاق لفتح ثغرة في الجدار الأسود، هذا عجيب، عليّ أن أدعم كتابي بكل الشروح والمعادلات اللازمة، سيكون عملاً ساحقًا، "إن مجد ما أنا مقدمٌ عليه سيمحو كل ما سبقه من أمجاد" كما قال دي مونترلان De Montherlant.

إن أنجربودا لا تحب ذلك، إنها تحب بريق الطموح في عيني، لكنها تخشى أن أفكر في تحقيق أكثر مما حققت، إنني أقدر خوفها، لكنني أحتاج إلى التركيز، تركيز كبير من أجل إكمال الكتاب على صغر حجمه، ولهذا عليّ أن أنعزل في مكتبي بقسوة، سيسير مشروع الخلود كما هو مخطط، إنني أثق بقدرة محمود وزملائي على الاستمرار بدوني هذه الفترة على الأقل.

24 فبراير:

انشغلتُ قليلاً عن الكتاب بأمور طارئة في المشروع، وقد انتهتْ، إنني أشعر بفرحة خاصة هذه الأيام، لا ندري بعد إن كان طفلي ذكرًا أم أنثى، كنت أحلم دائمًا بطفل اسمه شادي، حين سألتْني أنجربودا عن السبب لم أستطع أن أشرح لها أغنية فيروز، أما لو كانت أنثى فليكن اسمها فيروز، وكان هذا أسهل في الشرح على كل حال.

سيكون أي منهما عصيًا على الموت، لأنني –عكس أوبنهايمر– أحيِي العالَم[2].

[2] -يشير الدكتور إلى الأغنية الهندية التي غناها أوبنهايمر العالم الشهير وهو يراقب تجربة القنبلة الذرية في لوس ألاموس، والتي تقول: "إنني أنا الموت.. مدمِّر العالم..".

26 فبراير:

لاحظت زوجتي اكتئابي مؤخرًا، لم أعد أتحمل خوفها عليّ واهتمامها الزائد لأنني دائمًا أتحمل همّ أن أشرح لها ما لا أستطيع، وأتحمل همّ مشاعرها أيضًا.

إن أبحاثي تسير في اتجاهٍ سيئ.

إنه ذلك الكتاب الأخير، لقد توصلت فيه إلى استنتاج لو كان حقيقيًا فنحن جميعًا في مصيبة كبرى تاريخية، بل بالأحرى لا تاريخ لها ولا لنا.

نستطيع أن نهرب طبقًا لنظريتي، ينقصني فقط حل بعض المعادلات، وإذا صرنا خالدين فسوف نتمكن من الحياة بعد الهرب.

لقد اكتشفتَ كارثةً يا محمد.

ألم يكن من الأفضل أن نظل غافلين عنها؟

28 فبراير:

هذا اليوم بالذات يوم فارق في حياتي.

فليساعدني الله كي أدون التفاصيل قبل أن أنساها، فعقلي يدور، ونوم غريب يدهمني كألْف غشاء، ويدي ترتجف حتى يخرج القلم عن الصفحة كلها أحيانًا.

عدت إلى حجرة مكتبي بمعملي الخاص، لا أحد بالمعمل وقد أوشكتْ الساعة تدق الحادية عشرة مساء، أردت أن أقضي الليل في هدوء وأن أنهي فصلاً من كتابي.

كان المكتب مغلقًا منذ يومين، منذ أن غادرته أنا آخر مرة، فلماذا وجدت ضوءًا خافتًا يتسرب من أسفل الباب؟

عالجت مسدسي وفتحت الباب في حذر، كان المكان مهجورًا في هذه الساعة وكان عليّ أن أتصرف وحدي، تسللت بهدوء، بهدوء، إنني شبه منيع، ومع ذلك يستحق هذا المتسلل أيًا من كان أن يموت ما لم يستسلم، المشكلة هي كيف دخل دون مفتاح ودون أن يكسر الباب؟ النافذة كذلك مدعومة وسليمة كما رأيتها من الخارج، لو كانت مكسورة للفتت نظري بالتأكيد.

دخلت الحجرة فوجدت أحدًا يجلس على مكتبي، ضخم الجثة أميل إلى الطول، ذا شعرٍ طويل منسدل حتى كتفيه، الغريب أنه ظل جالسًا أمام المكتب ويوليني ظهره ويقلب في أوراقي رغم دخولي.

شيء ما في مظهره جعلني أدرك أنه ليس متسللاً عاديًا.

شيء في جلسته، في تقليبه الهادئ جدًا للأوراق، في ملابسه التي رأيت بعض تفاصيلها في ضوء المكتب الخافت.

شيء ما غامض وله مذاق أسود ملعون.

أصابتني غصة مفاجئة وأنا أقول بصوتٍ مبحوح مرتجف مصوِّبًا مسدسي إلى ظهره:

-من أنت؟

التفت لي قليلاً دون أن يريني وجهه، وبصوت عميق شبه معدني قال في بطء:

-أنت تعرف مَن!

سأكمل غدًا ما حدث، لأنني أنام، أنام، ولا أريد أن أنام، سيأتيني في الحلم ولن يتركني، لكنّ لا حيلة لي، لكنّ الويلَ لي، لكنه

سيجدني في كل حال، لا مفر في النوم أو اليقظة، لا أريد أن أنام، لا أريد...

بقية 28 فبراير:

كان صوته حين نطق باردًا أجشّ عميقًا فيه بحة لا أجد وصفها، ظللتُ أصوب له المسدس من باب القصور الذاتي، واستمر هو يقلب في أوراقي، ثم قال بالنبرة نفسها وهو لا يلتفت لي:

-لقد توصلت إلى الكثير يا بروفيسور، ولم تبق إلا اللمسات الأخيرة.

ساد صمتٌ مهيب، من يكون؟

هل هو..؟

بالفعل، إنني أكاد أعرفه.

لم أره من قبل لكني أعرفه.

-نعم، أنا هو يا بروفيسور، لقد أوتيتُ القدرة على قراءة الأفكار كما أوتيتُ القدرة على دسّها.

ثم نهض والتفت لي.

كيف أصفه؟ كان طويلاً مهيبًا، يشدّ قامته دومًا، ويرتدي جلد حيوانٍ مسلوخ يغطيه فلا يبدو منه سوى الرأس والكفين، لاحظت هذا قبل أن أبصر وجهه، لكن حين وقع بصري على ملامحه لأول مرة سقط المسدس من يدي وانكسر شيء ما في داخلي بعنف، وأحسست أنني لن أعود كما كنت، ولن أطهّر عيني أبدًا من مشهده مهما حاولت، ثم بدأت أمر بأعراض الصدمة.

كان وجهه ذا لون فضيّ مع بعض الملامح السوداء، لكنه بلا فك سفليّ، كان وجهه ينتهي بأسنان كبيرة عريضة كالقواطع غير منظمة، وكان صوته يصدر من هذا الفم الناقص دون حركة واحدة فيه، كأنما يصدر من مسمعة يحملها، وكان ينظر أمامه بشموخ مخيف وهو يكلمني، عيناه الفضيتان كانتا تلمعان لمعانًا ذاتيًا كأنهما مضيئتان، وكانتا كبيرتين جدًا وحزينتين، برغم مشهده البشع المشوه كانت ملامحه حزينة حزنًا يولد في النفس الرغبة في الموت، ليتني ما نظرت إلى هذا الوجه، ليته ما نظر لي، ليتني أوقفت أبحاثي واكتفيت بما عرفت.

رفع يده المخلبية المشققة التي تصدر صوتًا خشنًا في حركة أصابعها، وهمس بصوته المعدني:

–لن تفر وحدك يا بروفيسور.

كنت أرتجف وأوشك على الإغماء، لكني لم أستطع إبعاد عيني عن عينيه وهو يكمل بصوت كالفحيح:

-أكمل يا بروفيسور، وسنهرب معًا ونحيا إلى الأبد معًا.

لن يكون سوى أنا وأنت

نحن أطفال الكون الأشقياء

سنلعب كثيرًا معًا

أنا وأنت

أنت وأنا

أما الآخرون..

فسيغرقون حين تنفجر الفقاعة

التي اسمُها الكون

لأن أحدًا لا يبالي بهم

الذي اسمه واحد

وهم.. لا يعرفون

الذين هم بلا أسماء.

ثم قرب وجهه المرعب من وجهي فأغشاني بريق عينيه:

-أتمم أبحاثك وإلا نظرت في وجه ابنتك في رحم أمها وشوهتها.

ثم فرد قامته الفارعة واستدار ليخرج متابعًا:

-ستكون أنثى.

وعند الباب أدار لي رأسه وقال:

-ولن يكون اسمها فيروز.

وغاب في الظلام.

وحين رحل سقطت أرضًا في حالة إعياء وجنون، تحاملت على نفسي، وخرجت من الحجرة بحثًا عنه، فلم أجد أحدًا.

هاجمني نوم عنيف، وعرفت فيما بعد أنه علامة على انتهاء لقائه بي، راح رأسي يتمايل على كتفي لدقائق وأنا أدون أحداث تلك الليلة.

سوف يأتي الليلة أيضًا.

لقد أخبرني بذلك في حلم أمس.

1 مارس:

-لماذا أنا؟

-لأنك أنت.

-هل أنت مَن بدأتُ أراه بعد التجربة؟

-فاجأتني بأنك تتابعني ببصرك، كنت تراني كظل باهت أو شبح.

كان يقف بجانبي هذه المرة وأنا جالس أمام مكتبي وأكتب، يقف في ثبات ويتكلم دون حركة كما بدأت آلفه، غطت نبرة ساخرة قليلاً صوته وهو يقول:

-ما قيمة أن تكون خالدًا في كونٍ فانٍ بحكم طبيعته؟ كون هو أقرب إلى فقاعة عملاقة معرضة للانفجار مع أول اهتزاز أو احتراق؟ وما قيمة أن تهرب منها أيضًا إلى عالم آخر دون أن تكون خالدًا؟ لقد تخليتُ عن كل شيء، تخليتُ عن التحدي القديم، تخليت عن كراهيتي لكم، أمامي الآن فرصة أفضل للوجود.

-ماذا تريد مني بالضبط؟

-منحة للسفر إلى الخارج، أريدك أن تحل معادلاتك وتكمل كتابك.

وساد صمت طويل حتى ظننته ذهب، التفتُّ إليه فقال:

-عندئذٍ أريد أن أصبح مثلك.. خالدًا.

(دون تاريخ):

تشابهت الأيام، وبحثي الجديد والأخير ما يزال ينتظر الاكتمال وإن كنت أتقدم فيه في الفترة الأخيرة بشكل ملحوظ، هو أيضًا صار يزورني بشكل منتظم، ويطلع على آخر ما أكتب، كنت أندهش مما أجده فيه من قدرة على الاستيعاب، لكن لديه حكمة القرون.

ولم أكن أجده دائمًا في كل مرة أدخل فيها، كان أحيانًا يأتيني وأنا جالس أمام مكتبي أقرأ أو أكتب، لكنني لم أره يتحرك إلا نادرًا، وقد أثار هذا في حد ذاته رعبي، لقد صرت أتوقع رؤيته في أي مكان مهما بلغت درجة السكون والصمت، غالبًا كان يظهر عن يميني أو شمالي دون صوت، كأنه صورة، كأنه رمز، ألتفت لأجده واقفًا جواري يرمقني باهتمام وثبات مرعب، أخافتني فكرة أن يكون واقفًا منذ دقائق أو بعض الساعة وأنا لا ألاحظه، أخافتني فكرة أن يأتي ليتأملني وأنا نائم وينظر في وجهي أنا الذي أتحاشى النظر في وجهه، ألم يقل أن بمقدوره أن يشوه ابنتي في رحم أمها بمجرد النظر إليها؟ أنا أصدق هذا بعد ما لاحظته في مرآتي من تبدل، لقد ازدادت عيناي عمقًا وتكاثرت حولهما هالات قاتمة، هناك تغيرات أخرى أقل تحديدًا، لا أدري بالتفصيل هذا التغير الذي طرأ على ملامحي تدريجيًا، لكنني أراني الآن أشبه بمسخ فشل في التنكر في شكل بشري، هل وصلت بي الحال إلى حد الهلوسة؟ بل هذا حق، بل أنا فعلاً أتغير، بل قد صرتُ شبيهًا.. شبيهًا.. شبيهًا..

.. به، أنا شبيه به، ها أنا أقولها، هذا هو ما وصلت إليه، ما وصل إليه عالم نوبل العظيم، ما وصل إليه لُوكِي البشري الذي أراد انتزاع خلاصه بيديه فصار في النهاية توأم الشيطان.

كنت أجلس كثيرًا لأكتب وهو واقف إلى جانبي، وبردٌ رهيب يجمد أناملي ويجعل بدني يرتجف فأكاد أسمع صوت اصطكاك العظام، البرد ظله هو الذي ليس له ظل، لا يأتي إلا وهو معه ولم أعرف لماذا، يقف في ثباته وهيبته بالساعة أو أكثر منتظرًا أن أنهي فصلاً من كتابي، أحيانًا كانت دموعي تسيل قهرًا لتتجمد على الصفحة، كنت أخطر رجل في العالم فصرت عبدًا ذليلاً، كنت في القمة ولم أتوقع أن القاع قريب إلى هذه الدرجة، بل هو بعيد بلا نهاية، وأنا أهوي إليه ولا أعرف منذ متى.

لم أكن فقط أخشاه، كان شكله يولد في نفسي مزيجًا من الخوف واليأس والاكتئاب، مزيجًا يدفعني دفعًا إلى التفكير في الموت، خاصةً مع زيِّه المكوَّن من فراء الحيوان، لم يكن معطفًا، كان فقط فراءً تم سلخه وارتداؤه بشكل بدائي، شيء ما في هذا المظهر أوحى لي بدموية وشرّ لا حدود لهما، كأنما يعيش في البرية ويفترس الحيوانات، وإن كان حجم سلخة الفراء لا يقل عن حجم دبّ.

آهٍ يا أنجربودا، يا حبيبتي، ترى ماذا تفعلين الآن؟ وماذا تظنين بي وبعقلي؟ إنني أفتقدك يا حبيبتي.

(دون تاريخ):

شارفت على الانتهاء من الكتاب، وها أنا وضعت عنوانه ومقدمته، **فلسفة السفر عبر القدر**، فقط تنقصني آخر معادلة، وأنا أوشك على حلها.

أمس أو أول أمس لا أذكر، جاءني كما هي العادة، لكنه بدأ مونولوجًا مطولاً بلا مناسبة:

-"هو الطموح نفسه الذي ربط بيننا، وكما سأشرك نفسي معك في خطة الفرار أشركتك في تشوهي الخاص، وأحزاني الخاصة، أشركتك في وحدتي، أنت تعرف معنى الوحدة، معنى أن تتجمد وترى الجليد بلا عينٍ يزحف مع الزرقة على أطرافك، كنت جوارك وأنت لا تراني، تلك الليلة منذ عشر سنين حين شعرت لأول مرة بألم في كليتيك، تصاعد أنينهما، ووجدتَ الخوفَ يزيد ألمك، وأنت تتشبث بلا شيءٍ الظلامِ، ساعتها مددتُ لك يدي، مددتها لك بطول ذراعي، لكنك لم تربي.

"اليوم تراني، لقد أكلتَ من صوبة الخلد المحرمة التي زرعتَها في المعمل، ورأيتَ عورتك، أنا عورة الإنسان التي يغطيها بجلده وبدنه، جئتك كثيرًا في أحلامك لكنك لم تذكرني أو حسبتني كابوسًا، لقد أنكرتني سرًا وعلانيةً فعشتُ وحدي وعشتَ وحدك.

"إنني حزين أيها الإنس، حزين وأنت لا تستطيع استيعاب حزني، أنت أكلت من شجرة الخلد وأنا أكلت من شجرة الحزن، لا أعرف هل أنا حزين بعد الخطيئة، أم أن حزني هو الخطيئة، لا أعرف أيهما كان أولاً، لكنني مؤمنٌ أنني لن أقف تحت هذه السماء إلى الأبد"

أنهى كلامه وأطرق برأسه إلى أحد كتفيه، ظل واقفًا دون حركة، وقد بقيَ على هذا الوضع طوال الليل، غلبني نوم كاسح كالعادة مع انتهاء لقائه بي، فخرجت أنام على الأرضية خارج حجرة المكتب، وكنت أرى انعكاسه طيلة تلك الليلة السوداء على زجاج إحدى النوافذ في الممر الموصل إلى المكتب، لا يتحرك ولا يتكلم.

ولم أعرف متى رحل، لكنني في نور الصباح حين استيقظت دخلت المكتب، فلم أجد أحدًا.

(دون تاريخ):

طيلة أربع ليالٍ لم أره.

هل رحل؟ أم أن شيئًا حدث له؟

الغريب أنني لم أعد أفكر في أبجربودا كما كنت، أو حتى طفلتي المنتظَرة.

هل سيأتي الليلة؟

(دون تاريخ):

ما زال مختفيًا.

(دون تاريخ):

ربما مرت خمس أو ست ليالٍ بعد آخر لقاء لنا.

لماذا لستُ سعيدًا؟

(دون تاريخ):

أشعر بفقد شديد.

كان هذا الشعور ينتابني في مراهقتي، لا أعرف فَقْد ماذا أو مَن.

لقد توصلتُ إلى حل آخر المعادلات، ولا أجد من يحتفل معي.

27 مارس:

- **في مثل هذا اليوم 1968: مصرع رائد الفضاء السوفييتي يوري جاجارين.**

(لقد صعد فلم يرَ الله، ولكن.. ما الذي رآه؟)

(دون تاريخ):

ليلة أمس جاء، كنت أضع اللمسات الأخيرة في كتابي الذي اتضح لي الآن أنه ربما لن يطبع أبدًا، لكنه مع ذلك سيكون ذا أهميةٍ عظمى، شيء ما جعلني ألتفت إلى يميني في بطء فوجدته واقفًا يرمقني من علٍ، كانت ملامحه متجمدة كما هو دائمًا، لكنني لمحت أو توهمت ابتسامةً ما، انتفضتُ في قوة.

-إذن.. هي صِفر.

ازدردتُ ريقي في صمتٍ ورهبةٍ.. ونشوةٍ.

-وهذا يعني أنني سأخضع لتجربة الخلود يا بروفيسور.

(دون تاريخ):

ماذا أفعل؟ لماذا فعلتُ ما فعلتُه؟ وماذا سأفعل؟ ما الذي تورطت فيه؟

هذا لا يمكن.

سأرفض، نعم.. سأرفض وليحدث ما يحدث، لن يكون مصيري أسوأ مما هو بالفعل، أأحيا إلى الأبد مع هذا المشوَّه؟ ألم يكفني أنه مسخني؟

ولكنْ.. ابنتي..

إنني في مأزق فظيع.

12 إبريل (بخطٍ شديد الارتباك):

هذه آخر يومياتي التي بلا أيام، إنني الآن في المستشفى أنتظر النهاية بعد ساعات، وأكاد لا أذكر اللغة، لقد فعلها، وأنا لا أستطيع أن أفعل سوى أن أدون ما حدث عليَّ أحدًا يفهم شيئًا.

لقد جاء في آخر لقاء بيننا وأعلن أنه على استعداد لخوض تجربة الخلود، ثم طلب مني البدء في العمل، قلت له أن العمل يحتاج إلى فريق، فأكد لي أنه سيظهر في صورة بشرية ولن تكون هناك مشكلة، لم يكن أمامي إلا أن أصارحه، يكفيني ما صرتُ إليه، وكانت هذه هي المرة الأولى التي أجده يثور فيها ويهددني بأنه سيستولي على كتاباتي وسيرغم الفريق على العمل تحت إمرته، أفهمته أنه لن يستطيع، وأن هناك خطوات في المشروع لا يعلمها سواي، ثم أكدت له في خوف أنني أرفض كل تعاونٍ معه.

ظل يحدق في لثوانٍ بعينيه اللتين بلا جفون، وفجأة.. رفع يديه المخلبيتين وطعنني في صدري حتى أحسست بمخالبه تخترق رئتيّ.

تفجر دخان خبيث غريب من الطعنات، سقطتُ على الأرض أقرب إلى الموت كبالونٍ مثقوب مليء بالدخان، وأنفي وفمي يُخرجان دخانًا كثيفًا متواصلاً يملأ الحجرة، وأنا أتهاوى.. أتهاوى، استطعت فقط أن أضغط زر الإنذار، ثم غشيتني الغيبوبة.

أفقت هنا لا أعرف الوجوه التي تحيط بي.

لقد أتممت آخر مهامي وانتهت هذه اليوميات.

أخشى فقط على ابنتي.

ربما لا يَ..

أو أنْ.. (..!)

لا أعرف ماذا أقول.

لكنني ميت تقريبًا ولا أستطيع شيئًا.

فليرحمها الله، أما البشرية.. فأنْ تعيش حلمًا جميلاً أفضل من أن تعرف واقعًا أقرب إلى كابوس.

فلتصلّي من أجلي يا حبيبتي، صلي لزوجك الذي لم يستطع أن يصير إلهًا ولم يستطع أن يبقى بشرًا فصار شيطانًا آدميًا، لم يستطع أن يصبح لوكي الذي ينال خلاصه بذراعيه، ولا أن يبقى عالمًا من

علماء نوبل المشاهير، هذا حظك في الزواج، وحظي في الحياة والموت والخلود، وحظ ابنتنا التي ستحمل أوزار أبيها وأوزار الخليقة.

- **في مثل هذا اليوم 1961**: **قام جاجارين بالرحلة الأولى لغزو الفضاء.**

القسم الثالث

فلسفة السَّفَر عبر القدر

بقلم: د. محمد عبد الله

"نحن نعيش على شظيةٍ متخلفةٍ
من طَرْق مادة الوجود على سندان
الفراغ، نحن فقاعة نمتْ وطفتْ حين
غلا الكون الحقيقي غليانًا باردًا في
العتمة، ومع ذلك فمن حقنا أن
نعيش"

مقدمة

هذا الكتاب لعنة لي عليّ، ولعنة لي على البشرية، ولعنة للبشرية على الكون، ولعنة للكون على يوم انبثق من فراغٍ يفور بما فيه، ويوم يذوب بما فيه فيما ليس فيه وليس في أي شيء.

اليوم أغمس طرف أعصابي في محبرتي الأرملة لأكتب هذا الكتاب الذي لا أعرف إن كان كتابًا أدبيًا أم علميًا أم فلسفيًا أم كل ذلك، لكنني أعرف أنه كتاب في قصة لعنتي الخاصة، هو ببساطة معنى هذه اللعنة، وطبيعتها، والقوانين التي تحكم وجودها، وخطتي كي أفر منها.

لا أعرف من أين أبدأ، هل من لحظة ميلادي التي ظهرتُ فيها كنقطة في الفراغ في بلدٍ ملعون آيل للسقوط، وعالمٍ ملعونٍ في شعوبه وحكامه، وزمنٍ ملعون في ماضيه وحاضره ومستقبله؟ أم أبدأ بتصوري عن هذه اللعنة مباشرة؟ أم أتطرق إلى وصف ذاتي شعوري دون أي طرح تاريخي أو موضوعي؟

الحق أنني لا أعرف، والحق أنني لا أعرفه، والحق أنني لا أعرف إن كان يعرف أو لا يعرف أني أعرفه أو لا أعرفه، والحق أني لا أعرف إن كنت بهذا قد خضت في سلسالٍ من المغالطات المنطقية أم اللغوية!

على أنـي أقـف الآن بعيـدًا وأتأمـل تلـك الـذات الـتي أحـاول أن أتحـدث عنهـا وأشـرّحها وأطلـق الأسـهم علـى مخهـا ورئتيهـا وقلبهـا وأمعائهـا، وأتسـاءل كيـف اجتمعـتْ عليهـا هـذه الأَسْـوَدات؟ وكيـف غاصـتْ هـي فيهـا إلى القـاع، قاعِهـا وقاعِهـا، وكيـف سـقطتُ أنـا وترسبتُ كحصوةٍ خشنةٍ قبيحةٍ في قاعي حتى كليتيّ؟ إن الكليتين هما أعماق الإنسان الحقيقية، إذن فالحمّام هو المعبد والجامعة والمكتبة.

ربما حين أُبعث في القيامة أخرج هذا الأطلس التشريحي بدلاً من كتاب حسناتي وسيئاتي، فالملعونون ليس لهم حسنات أو سيئات، فقط لهم تشريح، لهم أن يُشرَّحوا لا أن يُحكم عليهم، لهم أن يُوصَفوا لا أن يدينوا أو يُدانوا.

لكنها ليست محاولةً لتبول الحبر للخلاص من هذه الحصوة في هذه الأوراق، وليست قيئًا للأفكار، وليست تطهرًا من أجل العودة إلى عالم ملوَّثٍ، ليست إفراغًا من أجل الملء، بل هي خوض في هذه اللعنة وانغماس فيها وغرق، ولو كان مِن مخرج منها فهو في قاعها.

إنـي مهمـا غسـلتُ وجهـي ورأسـي ويـديّ وجلـدي فـإن كليـتيّ لا تغتسلان منها.

إنني أصل الآن إلى ذلك المستوى المنحطّ الذي يمكّنني من تبصّر الارتفاع، والتأكد من أنني مجرد جلطة جلدية وعضلية وعظمية في سيلان المادة البشرية التي تملأ العالم منيًا وطمثًا.

إنني أهبط الآن إلى تحتي، وإلى تحت تحتي، وأتغطى بطبقات الجلد والشعر ثم الدم والشرايين والأوردة، ثم العظام، ثم أصغر فأصغر، حتى أصل إلى أحطّ مستويات الحياة وأكثرها واقعية وحقيقية، هذا اللحم غير العاقل الذي أسكنه، والذي لا يفهم سوى اللذة أو الألم.

إنني أسقط الآن في هذا الجسد الذي ليس لي غيره، وليس لي فوقه أو تحته أو وراءه، وليس فيه سوى ما يجري في تجاويفه من عصارةٍ ودم ونخاع وصديد، أسقط لأعرف، ولست أنوي الصعود.

معركتي الأخيرة هي المعرفة.

إنني لن أضم لصدري بارز الضلوع، المرتجف من البرد والمتمزق بالروماتزم والمتحشرج بالكآبة نهدي امرأة، لن أضم له بعد ذلك أبدًا نهدي امرأة، لكنني سوف أعرف.

سوف أعرف.

لكنني لن أضم بعد الآن أبدًا نهدي امرأة.

أحقًا لن أفعل؟!

الفصل الأول

الفقّاعة

ألم تتساءل أيها الإنسان أين تعيش بالضبط؟

على الأرض، في مجموعة شمسية، في مجرة، في كون، ولكن أين يقع هذا الكون بالضبط؟ وهو السؤال الذي يعني في الوقت نفسه تساؤلنا عن حدوده.

هل الكون مساحة لا متناهية من الفراغ؟ بمعنى أنك لو سرت في جهةٍ، وسار شخص آخر في الجهة المضادة في مسار مستقيمٍ فلن تجد حدًا ولن تلتقيا أبدًا؟ هل هو تفاحة أو كرة نخرها الدود ونحن نعيش في نفق صنعته دودة عملاقة، نحن وكل أجسامنا وكواكبنا وشموسنا ومجراتنا؟[3]

هل هذا الكون مفتوح على اللا نهاية كما تصوره الناس قديمًا؟ أم هو مغلق لكنه (يبدو) لنا لا نهائيًا نظرًا لضآلة ما نشغله بقياساتنا من حجم الكون؟[4]

---

3 - هذا التصور مشروح بتبسيط في كتاب جورج جاموف الشهير: "1، 2، 3، ..∞"، ترجمه محمد زاهر تحت عنوان: بداية بلا نهاية، سلسلة الألف كتاب الثاني، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

4 - هذه الفكرة مفصلة في كتاب آينشتين: النسبية، النظرية الخاصة والعامة، ترجمة: د. رمسيس شحاتة، دار نهضة مصر.

إن التصور الثاني المتناهي هو الأقرب إلى الصواب في الحقيقة، نحن نعيش في علبة أو كرة مغلقة، لكنها تتسع في هذه المرحلة من عمرها بكل ما فيها من نجوم ومجرات وأحياء.

هذه الكرة وكما أكدت نظريات الفيزياء في القرن العشرين ليست وحيدة، كما أكدت مثلاً نظرية M: الأغشية، وقبلها عدد من النظريات الهامة، هناك عدد من الكرات مختلفة الأبعاد والظروف، بعضها يتلاشى فور ظهوره لأنه غير مستقر، والبعض لم تصل درجة استقراره إلى حد ظهور الحياة فلا يتجاوز أن يظل بحرًا شاسعًا ميّتًا من الإلكترونات والنيوتريونات، والبعض الآخر هو الأكوان (الممكنة) رباعية الأبعاد التي تناسب ظهور الحياة وتكوين الـ DNA، ككوننا مثلاً[5].

نظريتي هي أن الكرة ستنتفخ لتنفجر في زمنٍ ما وينتهي العالم، إنها فقاعة هشة ضخمة، لكن هذا الأمر لا ينطبق على كافة الكرات أو الأكوان الممكنة، لأن بعضها لا ينتفخ بهذه السرعة التي يتمدد بها كوننا، مما يسمح بحدوث تساوٍ بين طاقة الجذب وطاقة الطرد المركزيتين، فيستقر حجمه، وهو النمط المثالي من الاستقرار، تلك هي الأكوان الحقيقية المعدَّة للاستمرار إلى الأبد.

---

[5] - هناك بعض التفاصيل حول نظرية M في كتاب ميتشيو كاكو: رؤى، الذي ترجمه سعد الدين خرفان تحت عنوان: رؤى مستقبلية، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.

هذا الكون الذي نعيش فيه ليس كونًا حقيقيًا.

إن الكون الحقيقي في نظر الله لا بد أن يكون مستقرًا، وأن يأتيه أمر الله بالفناء من خارجه، هذا الكون الذي نحياه مجرد بروفة، نحن نعيش على شظيةٍ متخلفةٍ من طَرْق مادة الوجود على سندان الفراغ، نحن فقاعة نمتْ وطفتْ حين غلا الكون الحقيقي غليانًا باردًا في العتمة، ومع ذلك فمن حقنا أن نعيش.

وفي الفصول القادمة سأشرح كيف.

الفصل الثاني

البُعد الخامس والقيامة الفيزيائية

أكبر دليل على تعددية الأبعاد فوق الأربعة، وأن هناك وجودًا أعلى فيزيائيًا من وجودنا هو الروح نفسها، إن كشوفاتي عن طبيعة الروح تؤكد أن الصفة الجوهرية فيها التي تمنحها ماهيتها كروحٍ واهبة للحياة هي شكلها الجزيئي الذي يتحرك في أبعاد خمسة، وبالتالي فالروح أعلى من أي كيانٍ رباعي الأبعاد في هذا العالم كأجسامنا مثلاً، وهذا يفسر لماذا نتعقل ونتابع عمليات تفكيرنا، إذن نحن لسنا المخ، ونحن أيضًا نتعقل ونتابع عملياتنا الشعورية بالاستبطان الداخلي، إذن نحن لسنا النفْس أيضًا.

إن الترقّي في الأبعاد يجعلنا أكثر حكمة، مثلما أن البعد الثالث–الارتفاع–يمكننا من الحكم على ما يحدث في بعدي الطول والعرض حين نشرف على الأمر من أعلى.

ربما كانت هذه هي فكرة السمٰوات السبع والأراضين السبع، من يدري؟

نحن كيان أعلى من الجسد أو المخ أو النفس، ومن التفاهة أن نلخص الوجود في أي منها، نحن مخلوق فريد، يضع إحدى قدميه في أبعادٍ خمسةٍ، أي: الروح، والأخرى في أبعادٍ أربعة، أي: الجسد.

هذا هو بيت القصيد، إن الروح باب خفي للفرار من الفقاعة الكونية المهددة في أية لحظة بالتلاشي التام، وعن طريق السيطرة على الروح في مشروع الخلود الذي بدأتُ تنفيذه نستطيع أن نحيا إلى الأبد في العالم الحقيقي الذي يعتني به الله، والذي لا بد أنه أجمل وأكثر عدالة وشاعرية من هذا الكون الذي هو أقرب إلى سلة مخلفات وجودية.

الروح أو مادة الأنيما كما أسميتها هي الباب، ولكن كيف نفتحه؟

هذه هي مهمتي الأخيرة في هذا الكون قبل أن أغادره.

لكن الأهم هنا التأكيد على أن قيامة هذا الكون لن تسفر عن شيء، لأنها قيامة فيزيائية حين تنفقئ الفقاعة لأي سبب، هي أقرب إلى حادثة طريق لا معنى لها أكثر مما يتخلف عنها من جثث.

هؤلاء البشر يعيشون ولا يعرفون، يعيشون ولا يتصورون بشاعة المصير، وعبثية الوجود، وأن هناك وجودًا آخر حقيقيًا بجوارهم فقط لو استطاعوا الفرار.

لقد قررت أن أحقق حلمًا قديمًا زارني كثيرًا في شبابي، أن أهرب من خارطة القدر، إن قدر هذا العالم أن يفنى لا محالة وبأسرع مما يتصور أحد، ربما الآن، ربما قبل أن أنهي هذا الحرْ...ف، وهذا هو أول قدر، القدر الثاني هو قدر الكون البديل الذي سأكون دخيلاً عليه بعد العبور، هذا أيضًا أتحرر منه لأنني لست عنصرًا متحركًا في مساراته من البداية، وهذا هو ما سيجعلني حرًا تمامًا.

في الفصل القادم أتحدث عن الحرية، وعن مدى القهر الميتافيزيقي والاجتماعي الذي نعيشه بشكل يضطرنا اضطرارًا لتجربة كل سبيل مهما كان خطرًا من سبل الفرار.

الفصل الثالث

الاغتصاب الميتافيزيقي والاغتصاب الاجتماعي

قد تظن أنك حر حين تقلب هذا الصفحة، ولكن تصور أنك شخصية في رواية، وأن أحداث هذه الرواية تتضمن أن تقرأ هذا الكتاب وأن تقلب هذه الصفحة، أنت تفعل بإرادتك لكنك في الحقيقة تتحرك في المسار الذي خطط له المؤلف، بل الذي كتبه وانتهى منه بالفعل.

هذه نقيضة من نقائض العقل، هل أنا حر أم مجبر؟ إن الأدلة على الاختيار الأول تتكافأ منطقيًا مع الأدلة المقابلة التي ترجح الاختيار الثاني، هذا هو معنى نقائض العقل، وهي فكرة تُنسب إلى الفيلسوف الألماني كانط.

ولكن بعيدًا عن كانط وبالقرب من الروح: تخيلْ أنك أنت الروح- وهذا هو ما أنت عليه فعلاً-وأنك يد داخل القفاز لكنها (خارج مادته)، إنك تحرك الجسد كدمية الماريونيت، لكنك لن تدري أبدًا- مع تطبيق فكرة النقائض-ما إذا كنتَ محرِّكًا أصيلاً أم متحركًا بفعل فاعل أكثر أصالة.

ولكن ما الذي نستفيده من كل هذا؟ ما الذي نخلص إليه حين نقول أن فرض الحرية يتساوى منطقيًا مع فرض الجبرية؟ لا شيء، نحن فقط ندحض أية خطوة خاطئة أخرى بلا دليل فيما وراء هذا الحد.

ومع ذلك فالحقيقة أن الحرية+الجبرية=جبرية من نوع ما، جهلك في حد ذاته إنْ كنت حرًا أم مجبرًا يتجه بوجودك نحو الجبرية، نحو شكل من أشكال القهر هو قهر الجهل، ولو كنت حرًا لكنت تعرف ذلك يقينًا.

لكننا لا ننال جديدًا بالمنطق، استنتج ما شئت ولن يكون معك إلا ما كان معك من البداية، نحن ننال أي شيء بالفعل لا بالفكر، ولننال حريتنا علينا أن نبدل الأكوان كالملابس، أن نتحرر من الوجود رباعي الأبعاد المستعبَد، وأن نسبح في الوجود خماسي الأبعاد نحو جزُرٍ أخرى، وهذا كما أسلفنا لا يمر إلا من باب الروح، فالروح هي الجزء الإلهي فينا وتحريرها هو الوسيلة الوحيدة للخروج على النص، وكتابة رواية جديدة لم تكتب بعد.

من الناحية الأخرى: انظر في هذا العالم، هل تجد به ذرة من العدالة؟ مجموعة صغيرة من الطغاة يحكمون مجموعة كبيرة من الجهلاء يحكمون مجموعة نادرة من العقلاء، ها أنا ألخّص لك السياسة والاقتصاد والاجتماع والقانون، ألم تنظر في موقف طفلٍ يتعرض

للاغتصاب مثلاً على ما يعانيه من إهانة ستلازمه طيلة عمره؟ إن من يصَب بالسرطان ويمت لا يعانِ إلا الألم والموت، ولكن الإهانة مسألة أخرى.

ألم تتساءل عن السبب الأخلاقي؟ ما الذي جناه هذا الطفل الذي لا يستطيع من أمره شيئًا ليستحق هذا؟ وغالبًا ما يكون هذا الطفل من طبقةٍ اجتماعية منحطة أو من أطفال الشوارع، فيزيده البؤس الاقتصادي والاجتماعي بؤسًا نفسيًا وخلقيًا ويصير بلا كرامة، وبالتالي فهو في أحسن الأحوال رجل ذليل محطم بلا كبرياء يستمد منها الشرف.

وإذا لم نسأل عن ذنبه الذي عوقب على براءته منه، فمن حقنا على الأقل أن نتساءل عن الدرس المستفاد من هذه القصة، ما الخبرة العظيمة النافعة للفرد والجماعة التي يكتسبها هذا الطفل من هذه الواقعة؟ وهو سؤال مردود عليه أعلاه.

وإذا لم نسأل عن الخبرة المستفادة فعلينا على أقل القليل أن نسأل ما إذا كان هذا اختبارًا مَثلاً لذلك الطفل في إطار الفكرة العامة التي تفسر هذه الدنيا بوصفها اختبارًا كبيرًا؟ وأنا شخصيًا لم أسمع عن اختبار بهذه القسوة، ولطفلٍ! وهو يتعارض مع فكرة تكريم الإنسان بشدة.

تصورْ عدد الأطفال والنساء والرجال الذين يعانون أشكالاً متعددة من الإهانة في كل دول العالم؟ هذه هي الفوضى الحقيقية.

هذا معناه أننا على مستوى الكون وعلى مستوى المجتمع لا نتمتع بأدنى قدر من الكرامة أو الحرية.

كيف تتحرر؟ ناضلْ وادخل المعتقل وستغتصَب داخله، لم يعد في النضال أي كرامة، ولو كان تعذيبًا تقليديًا لصار فيه بطولة، هل سمعت عن بطل تم اغتصابه؟ هل سمعت عن رمسيس الثاني أو عنترة بن شداد أو سبارتاكوس أو إيجمونت أنه اغتُصِب ثم صار يفخر بهذا معتبرًا إياه من آلام ومعاناة البطل الضرورية؟ هل كان في ذهن نيتشه حين ألَّهَ البطل أن هذا المعبود الجديد يمكن أن يكون قد تعرض للاغتصاب؟ إن الإله لا يجوز عليه النقص، فما بالك بالاغتصاب؟!

إن نيتشه لم يكن فيزيائيًا.

لكن هذا الاغتصاب الاجتماعي ليس أصيلاً، إنه فرع من الاغتصاب الميتافيزيقي حين تجهل إن كنت مسئولاً عن أقوالك وأفعالك وأنت في كامل قوال البدنية والعقلية والنفسية، فلو لا الاغتصاب الميتافيزيقي لكنا قادرين على المكان والزمان من جهةٍ،

ومسئولين عن كافة ما يواجهنا ويحدث لنا من جهةٍ أخرى، ولما قيدتنا حدود الأجساد والخرائط السياسية.

لا كرامة بلا حرية.

لا توجد كرامة ناقصة، ولا حرية ناقصة.

فقط توجد كرامة كاملة، وإهانة، وحرية كاملة، وجَبْر.

وبالتالي لا كرامة كاملة بلا حرية كاملة.

هذا الكون لكل ما تقدم لا يعتني به أحد في نظريتي، وهذا دليل أخلاقي على زيفه وعدم أصالته الطبيعية، فإما أن الله غير موجود، وهو فرض غير مقبول من أوجهٍ كثيرة، وإما أنه موجود لكنه غير خيِّر ليسمح بهذا الظلم، وهو أيضًا فرض باطل لأنه يتعارض مع فكرتنا عن الكمال، فلم يبق مِن حل سوى أنه إلهٌ حقيقي، بينما نحن بشَرٌ مزيفون، أو بالأحرى نعيش في كون زائف، وفي كل هذه الحالات علينا أن نعتني بأنفسنا، وأن نطبق فكرة البوفيه المفتوح، لأن لا أحد سيطعمك أو يسقيك، هناك فقط من سيحييك ويمحوك، علينا أن نفرّ، أو أن نحل على الأقل ضيوفًا على كونٍ أكثر عدالة وكرمًا للضيافة.

الفصل الرابع

معادلات

1-معادلة الخوف:

1) إذا كانت:

النفس البشرية= ن

، الخوف= ف

، الرغبة= ر

فإن:

ن= ف+ر

2) ∵ن= ف+ر

، ر= -ف (والعكس: ف= -ر)

∴ن= ف+(-ف)

3) ∵ن= ف+(-ف) : ن≠ صفر

، -ف= صفر×ف (لأنها تعني التخلص من المخاوف)

∴ن= ف+صفر×ف

، ∵صفر×أي قيمة= صفر

∴ن= ف+صفر

، ∴ن=ف .... نتيجة (1)

4) برهانٌ آخر على المطلوب نفسه:

∵ ن= ف+ر

، ف= −ر

∴ ن= ر+(−ر)　　　　: ن≠ صفر

5) ∵ ن= ر+(−ر)

، −ر= صفر×ر　　　　(لأنها تعني التخلص من الرغبات)

∴ ن= ر+صفر×ر

ولكن: صفر×ر= ف

∴ ن= ف+ر

(عد إلى المعادلة (2) للوصول إلى المطلوب نفسه)

∴ ن= ف (في جميع الحالات)

6) ∵ −ر= صفر×ر

، ف= −ر

∴ ف= صفر×ر　　　　(والعكس: ر= صفر×ف)

7) ∵ حضور (ر) يُولِّد التوقع بزوالها (−ر)

∴ ر ⇦ −ر

8) ∵ن= ف+ر

، ر ⇦-ر

∴ن= ف+(-ر)

∵ف= -ر

∴ن= ف+ف= 2ف .... نتيجة (2)

(: 2ف= الخوف من الخوف)

9) ∵ن= 2ف

، ن=ف

∴ن= 2ن

(: 2ن= تأمل النفس في نفسها)

10) ∵ن= 2ن

، ن= 2ف

∴ن=2×2ف= 4ف .... نتيجة (3)

(: 4ف= الخوف من الخوف من الخوف)

11) ∵ن= 4ف

(بضرب الطرفين في المجهول)

∴∞ ن= ∞ ف

ولكن: ∞ ن= ن (لأن ن لها تميز نوعي لا يتكرر)

∴ ن= ∞ ف #

(: ∞ ف= الخوف من الخوف من الخوف.... ∞)

2– معادلة المعرفة:

1) إذا كانت:

الحرية= ح

، النفس= ن= ∞ ف (معادلة الخوف)

، المعرفة= م

، التمييز= ت

∴ ح= ت (لأنه لا حرية بلا تمييز بين الممكنات)

2) ∵ ح= ت

، ت= م

∴ ح= م .... نتيجة (1)

3) ∵ ح= ن (لأنها تساوي السيطرة التامة على الذات)

، ن= ∞ ف

∴ ح= ∞ ف .... نتيجة (2)

4) من (1)، (2) نستنتج أن:

م= ∞ ف #

3- معادلة الحرية (حساب سرعة الهروب):

1) إذا كانت:

سرعة جزيئات مادة الأنيما= $س_أ$

، درجة التماسك بين الأنيما ومادة الجسد= د

، ومعروف تجريبيًا أن $س_أ \propto$ د (: $\propto$ أي تتناسب طرديًا مع..)

∴ $س_أ \propto$ د .... نتيجة (1)

2) ∵ الروح (و) موجودة في الجسد (ج)

، (ج) موجود في الكون (ك)

∴ الوجود في ج= الوجود في ك

3) ∵ الوجود في ج= الوجود في ك

∴ (بضرب الطرفين في -1):

-(الوجود في ج)= -(الوجود في ك)

، ∵ الهروب (هـ)= -(الوجود في ك)

∴ هـ= -(الوجود في ج) .... نتيجة (2)

4) ∵ هـ= -(الوجود في ج)

، $س_أ \propto$ د

، د $\propto$ (الوجود في ج)

، د $\propto$ 1\هـ (د تتناسب عكسيًا مع هـ)

∴ $س_أ$ $\propto$ 1\هـ (ويمكن أن $س_أ$= ثابت × 1\هـ)

5) ∵ $س_أ$= ثابت × 1\هـ

∴ $س_هـ$ (سرعة الهروب)= ثابت X 1\أ

6) ∵ هـ= صفر × د (لأنها تحقيق الانفصال الكامل)

∴ $س_هـ$=صفر × ثابت × 1\أ = صفر

∴ $س_هـ$= صفر #

4- معادلة كل شيء:

إذا كانت النفس= لا نهاية الخوف (معادلة الخوف)

، والمعرفة= لا نهاية الخوف (معادلة المعرفة)

إذن: لا بد من الحصول على $س_هـ$

وبما أن: $س_هـ$= صفر (معادلة الحرية)

إذن: بإيقاف حركة جزيئات الأنيما تعبر الروح إلى عالم آخر

إذن: لا بد من إيقاف الروح ###

الفصل الخامس

إلى أنجربودا

اغفري لي

لقد كنت فقط خائفًا

اغفري لي حبيبتي

لأنني كنت.. فقط.. خائفًا

ولم أكن طَموحًا كما حسبتِ

اغفري لي

لأنني أحببتكِ

ولأن حبي لك يعني أنني كنت وحيدًا من قَبلكِ

ويعني أنني لم ألق أحدًا في الطريق إليكِ

فاغفري لي أنني كنتُ وحيدًا

اغفري لنفسكِ

لأنكِ أحببتني

ولأن حبك لي كان حبًا لطموحي

فاغفري لنفسكِ أنني كنت طموحًا

وأنكِ يجب أن تغفري لي

لأنني لم أكن كذلك

وكنت في الحقيقة خائفًا

اغفري لنفسك إذن أنني كنت خائفًا

وهذا لا ذنب لكِ فيه

لهذا..

أنا..

لن أنال الغفرانَ

أبدًا.!

المؤلف في سطور

- **كريم الصياد**.
- من مواليد القاهرة، 30 نوفمبر 1981.
- تخرّج في كلية الآداب–جامعة القاهرة–قسم الفلسفة، ويعمل حاليًا مدرسًا مساعدًا بالقسم في تخصص الفلسفة الإسلامية، ويدرس حاليًا للدكتوراه في فلسفة التأويل بجامعة Universität zu Köln بألمانيا الاتحادية.
- حصل على درجة الماجستير الممتاز من قسم الفلسفة، كلية الآداب، جامعة القاهرة في يناير 2012.
- عضو اتحاد كتاب مصر.
- عضو مؤسس بجماعة "**جُذور**" الفلسفية، وأول رئيس لها.
- عضو الجمعية الفلسفية المصرية.
- شارك في ودُعي إلى العديد من مؤتمرات البحث العلمي وورش العمل العلمية في دول عربية وأوروبية.
- صدر له:

1. **الأَمْر**: ديوان شعر، دار اكتب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2007.
2. **منهجٌ تربويٌّ مقترَحٌ لِفاوست**: ديوان شعر، دار شمس للنشر والإعلام، القاهرة، 2009.
3. **الرجال–Y**: مجموعة قصصية، دار شمس للنشر والإعلام، القاهرة، 2010.
4. **صدام الحفريات**: مجموعة روائية، دار اكتب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2012.
5. **اثنتا عشرة عينًا على مَشهد التسلُّط**: كتاب في الفلسفة(تحرير ومشاركة) ، منشورات الجمعية الفلسفية المصرية، دار الهاني للطباعة والنشر، القاهرة، 2008.

6. **دراسة في الديمقراطية، لأوسكار لوفل تريجز** (**ترجمة**): مركز جامعة القاهرة للغات الأجنبية والترجمة التخصصية، 2012.
7. **مقدمة إلى مبادئ الأخلاق والتشريع، لجيريمي بنتام** (**ترجمة**)، مركز جامعة القاهرة للغات الأجنبية والترجمة التخصصية، 2013.
8. عدد كبير من الدراسات الفلسفية والأدبية والموسيقية في دوريات عربية ومصرية وإلكترونية.

- البريد الإلكتروني: k.elsaiad@daad-alumni.de



١) النفس البشرية= ن

، الخوف= ف

، الرغبة= ر

∴ ن = ف+ر

٢) ∵ ن = ف+ر

، ر= -ف (والعكس: ف = -ر)

∴ ن = ف+(-ف)

٣) ∵ ن = ف+(-ف) ؛ ن≠ صفر

، -ف = صفر×ف (لأنها تعني التخلص من المخاوف)

∴ ن = ف+صفر×ف

، ∵ صفر×أي قيمة = صفر

∴ ن = ف+صفر

، ∴ ن = ف

٤) ∵ ن = ف

(بضرب الطرفين في المجهول)

∴ ∞ ن = ∞ ف

ولكن: ∞ ن = ن (لأن ن لها تميز نوعي لا يتكرر)

∴ ن = ∞ ف #

(: ∞ ف= الخوف من الخوف من الخوف.... ∞)